خليل صويلح

وراق الحب

رواية

www.ibtesama.com

اسم الكتاب: ورّاق الحُبّ

اسم المؤلف: خليل صويلح

جميع الحقوق محفوظة

١٠٠٠/٢٠٠٨م. ١٤٢٨هـ

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

٥١٤١٦٠٥ ١١ ٩٦٣ +

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail: ninawa@scs-net.org
sseba@Gmail.com

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطابع دار نينوى

القسم الفني دمشق - سوريا

القياس ١٤,٥ ◆ ٢١,٥

عدد الصفحات: ١٤٨

لوحة الغلاف: من الأرشيف

للتواصل مع الكاتب email: Khalil.s@scs-net.org

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من المترجم

www.ibtesama.com

خليل صويلح

ورّاق الحبّ

رواية

www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

نادراً ما أُعجب بروايات الآخرين خصوصاً تلك المثقلة بالتاريخ والحروب وكأنها كُتبت لإلحاق الأذى في نفوس القراء. وصار لدي خبرة لا بأس بها في اكتشاف الرواية الرديئة من غلافها ربما، أو من اسم كاتبها، وأحياناً من عنوانها. وهكذا في جولتي على المكتبات كنت أكتفي بنظرة سريعة اكتشف خلالها الرواية التي تستحق القراءة، إذا لم أقل أشم رائحتها فوراً.

وأعترف أنني لست روائياً، لكنَّ شغفاً ما أخذ يراودني في كتابة رواية تشد القارئ من أذنيه إلى جحيمها الخاص، متكئاً باطمئنان إلى سلالة طويلة من أصدقائي الروائيين معتبراً في الآن ذاته أن نصوصهم التي قرأتها وتمعنت في سطورها واختزلت بعض جملها بخطوط حمراء وسوداء وفوسفورية، كُتبت من أجلي ولإشاعة الحبور في روحي المضطربة ولنصب الفخاخ أمامي كي أقع في شراكها إلى الأبد. ويمكنني في هذه اللحظة استدعاء أرواح عشرات الشخصيات التي تحوم ظلالها حولي انطلاقاً من قناعة أكيدة، إننا نعرف بعضنا جيداً،وسبق أن التقينا معاً في أمكنة مختلفة وأزمنة متباعدة، وأحياناً نتبادل رسائل سريّة وملغّزة تعيد بعض التوازن إلى كياني المضطرب والهش.

وأحاول الآن التقاط البذرة الأولى التي قادتني إلى التفكير بحماقة إنجاز روايتي المزعومة التي حاصرتني فجأة بعد ظهيرة يوم شتائي وأنا أقلّب صفحات كتاب اسمه "تاريخ القراءة" لمؤلف لم أسمع باسمه من قبل يدعى "ألبرتو ما نغويل" ربما كان أرجنتينياً، وقد كُتب على غلافه الأخير هذه الجملة: "القراءة ضرورية للحياة كالتنفس" وقام هذا المؤلف باقتفاء آثار النصوص المكتوبة والمقروءة والمطبوعة عبر مختلف العصور التاريخية،ولعل أكثر ما شدني إليه أنه كان على علاقة مباشرة بأحد الكتّاب الذين أحبهم وهو خورخي لويس

www.ibtesama.com

بورخيس, إذ كان يقرأ له مدة عامين كاملين يوماً بعد يوم باعتباره كفيفاً, وأكثر ما كان يردده على مسمع هذا الكاتب العظيم فصولٌ من "ألف ليلة وليلة".

في المساء خرجت من المنزل كعادتي, أمشي بلا هدف في شوارع أعرفها جيداً, لاستنشاق بعض الهواء والفرجة على واجهات المحلات المضاءة, وعرجت على مكتبة "ميسلون" فوجدت الكتب ذاتها عدا بعض العناوين الجديدة عن حرب أفغانستان وأسامة بن لادن, وفكّرت للحظة أن سبب تفكيري في كتابة رواية تختزل كل الروايات التي قرأتها طوال ثلاثين عاماً ربما هو الابتعاد عن رائحة الحرب القذرة التي شنتها أمريكا ضد هذا الشعب البائس والجائع منذ سنوات ساعية إلى استباحة العالم بكل صفاقة, ومحو خصوصيات الآخرين.

أكثر ما كان يلح على "مخيلتي" في المقهى الذي جلست فيه إيجاد مفتاح لهذه الرواية. فكرت أن أبدأ أولاً بوصف زيارة بطل الرواية إلى أزقة دمشق القديمة جرياً على عادة الروائيين المغرمين برائحة البيئة المحلية, وهناك تقوده خطواته إلى الجامع الأموي بحثاً عن كتابة ما على جدرانه, يسجلها في دفتر ملاحظاته, فالفكرة الهلامية الأولى التي تدور في مخيلة الراوي الذي هو في الآن ذاته بطل الرواية, جمع مادة أولية عن تاريخ الكتابة, والحكم والأمثال المسجّلة على أبواب البيوت القديمة وجدرانها وأقواسها, باعتبارها مرجعاً لنمط تفكير متواصل ومستمر, مثل عبارة: "حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً", أو "الملك لله", أو "بسم الله الرحمن الرحيم".

وكي لا أقع في ارتباك بلاغي, سوف أقرر منذ هذا السطر أن أروي ما سوف يجري على لسان الراوي, كنوع من السيرة الذاتية التي أعتقد أنها أكثر إغراء للقراء, خصوصاً إذا تخللتها اعترافات مثيرة, وهو ما أعدكم به في الفصول اللاحقة, ربما .في الصفحة (٩٨) وقد اخترت هذا الرقم, تيمناً بما فعله صديقي هنري ميللر في "مدار الجدي" فقد أهديت هذه الرواية منذ سنوات إلى

www.ibtesama.com

زميلة في العمل، وكتبت لها إهداءً ماكراً: "أجمل الروايات تلك التي تقرأ من الصفحة (٩٨) وما بعد، وخاصة هذه الرواية"، لكن خططي في إغوائها فشلت بصراحة، وكان بإمكاني أن أزوّر الحقائق وأقول إنني نجحت في اصطيادها، فحين التقيتها في اليوم التالي في المصعد، حاولت تقبيلها لاختصار المسافة والزمن، وكنت على قناعة أنها التقطت الطعم، لكنها دفعتني بعنف، وأخرجت الكتاب من حقيبتها وألقت به في وجهي، وخرجت من المصعد غاضبة.

بعد جولتي الروحانية في الجامع الأموي، نزلت الدرجات القليلة باتجاه مقهى النوفرة، وهناك تناولت الشاي بالنعناع كأي روائي موهوم ومغمور لم تضمه قائمة "نوبل" بعد نتيجة خطأ في التقدير ربما، وكان لوجود الحكواتي في هذا المقهى الشهير فرصة لاكتشاف مفتاح آخر لروايتي، وهو الاستفادة من طريقة الحكواتي في السرد. وقررت اقتناء نسخة من "سيرة عنترة" وأخرى من "سيرة الظاهر بيبرس" و "أبو زيد الهلالي" واختيار مقاطع من هذه الكتب ووضعها في سياق الرواية، أو النسج على منوالها. وأثناء تأملي للشرفات الخشبية العتيقة المطلة على المقهى، فكرت بمدخل جديد لروايتي ينسف كل المقترحات القديمة، وكدت أطير نشوة من الفكرة التي جاءتني للتو: تاجر قام من بغداد أراد أن يستريح من وعثاء السفر، وهو يبحث عن خان يبيت فيه ليلته، وأثناء مروره في أحد الأزقة يلمح امرأة في غاية الجمال تطل من وراء شرفة الستارة، فيعاوده الهم والأسى، وحين يجد خاناً قريباً يسأل صاحب الخان عن هذه المرأة، لكن صاحب الخان يخبره أن هذا البيت مهجور منذ حول على الأقل، فزاده هذا الأمر استغراباً وشططاً في عقله، وفي الصباح يستيقظ مهموماً ومشوشاً، فقد رآها في منامه كما شاهدها أمس، وعند خروجه من الخان يتجه إلى المقهى المقابل للشرفة وينظر بعينيه عله يرى تلك المرأة، وهكذا يظل سبع ليال على جلسته هذه، لا يأكل طعاماً ولا يقرب شراباً، فيتخلف عن القافلة التي جاء في ركابها، وفي نهاية الليلة السابعة يتسلل إلى هذا البيت فيجده مهجوراً بالفعل،

www.ibtesama.com

لكنه يكتشف صندوقاً مهملاً في باحة الدار, وحين يفتحه بعد تردد يجد رقعة مكتوباً عليها:

"إذا أردتني زوجاً لك ورغبت دفع مهري, فعليك أن تنسخ لي كتاباً يحتوي أجمل ما قيل في الحب والفراق والموت".

وهكذا بعد غيبة تسعة عشر عاماً وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً, وُجد هذا الرجل ميتاً أمام عتبة البيت, وقد سُدّ الزقاق بقافلة من الجمال المحمّلة بمئات المخطوطات التي جمعها خلال رحلته الطويلة التي طاف فيها بلاد فارس وبخارى والأندلس وفاس ومصر وبغداد والقدس إلى أن وصل إلى دمشق فجر العاشر من ذي القعدة من سنة (٢٣٧ هجرية), ووجد أن أحد المارّين الرجل ممدداً على الأرض, وعندما اقترب منه تأكد أنه أسلم الروح, ولفت انتباهه وجود رقعة إلى جانبه, وحين فتحها قرأ ما فيها, فأصابه العجب من أمر هذا الرجل الغريب:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: من العبد لله زيد بن إبراهيم البغدادي إلى "ياسمين زاد".. أوصي بحمولة هذه الجمال أن تحفظ في مكان أمين, على أن يتردد عليه كل من مسه العشق وأصابته لوثة الهيام, للتزوُّد من أخبار هذه الكتب التي نسختها بمداد القلب أياماً وليالي,دون أن يصيبني الوهن أو توقفني علة عابرة, عن إتمام ما نويت عليه في ليلة ظلماء من ليالي دمشق, ولولا ما أصابني من شلل في يدي اليمنى, ثم في يدي اليسرى, لكنت وفيت وعدي الذي قطعته على نفسي قبل أن أتلوه عليك بحضورك وغيابك, والله على ما أقول شهيد".

ويقال إن الرجل دُفن على عجل في مقبرة بالقرب من الجامع الأموي, وصار ضريحه مزاراً للعشاق والنساء العاقرات, ورويت حكايات كثيرة عن معجزاته, وكان أكثرها تداولاً أن شعاعاً ينبثق من قبره ليلة يغيب فيها القمر من كل شهر, وهي الليلة التي تراءى له فيها طيف "ياسمين زاد" أما كتبه التي نسخها فقد فُقدت في إحدى غزوات تيمورلنك على دمشق, ويقال إنها محفوظة في

www.ibtesama.com

مكتبة أحد المستشرقين الأوروبيين الذي زار دمشق أواخر القرن التاسع عشر، ولا أحد يعلم عنوانه أو اسمه. وقد خرّب الزار ولم يبقَ من ذكر للمدعو زيد بن إبراهيم البغدادي سوى زقاق ضيق في حي ساروجة قبل أن تطلق أسماء جديدة على الشوارع ويختفي أثره تماماً، عدا نسخة من كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي، يعتقد أنه أول من نسخها في إحدى مكتبات قرطبة.

فكرة نسخ أجمل ما قيل في الحب والفراق والموت، قادتني إلى التفكير بالجاحظ، وحاولت أن أتذكر شيئاً عنه. عدت إلى مكتبتي التي لم أرتّب محتوياتها منذ سنتين على الأقل، بحثاً عن آثار هذا الرجل، فأنا لا أذكر الآن شيئاً من سيرته، سوى أنه مات بالفالج في مكتبته التي انهارت فوقه في أواخر حياته. وحين وجدت كتاباً عن حياته ومؤلفاته، سجلت في دفتر ملاحظاتي ما اعتقدت أنه ضروري للرواية: "كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الأسماع تصغي إليه، ولا الإرادات تيمم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقض منه رتبة، وأقل فائدة، وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها". وأيضاً: "لم أرَ قط ولا سمعت بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر".

في المكتبة الظاهرية وقفت مذهولاً أمام رفوف الكتب القديمة والمخطوطات، وأصابتني حيرة كبيرة أمام آلاف الصفحات التي ينبغي مراجعتها والتدقيق فيها بحثاً عن جملة مفيدة أو أبيات من الشعر، وعن كتاب بعينه للجاحظ هو "رسالة في العشق والنساء" لكنني لم أجده في الفهارس ككتاب مستقل، إنما وجدت مقطعاً بعنوان "رسالة في القيان" أعتقد أنه مجتزأ من الكتاب الأصلي، وفيه وصف لقينة: "كيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة. وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ. وهي

www.ibtesama.com

إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدر عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث وبين الخُلعاء والمجّان ومن لا يُسمع منه كلمة جد ولا يرجع إلى فقه ولا دين ولا صيانة مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً. يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات. عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة. ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب. وإنما بُنيت كلها على ذكر الزنى والقوادة. والعشق والصبوة والشوق والغلمة. ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها. بل تظل منكبة عليها. فهي لو أرادات الهدى لم تعرفه. ولو بغت العفة لم تقدر عليها".

واظبت بشكل متواتر على زيارة المكتبة الظاهرية. وفي ذهني ما يفعله الروائيون الكبار في هندسة رواياتهم. والتحضير والبحث عن مصادر تخص الزمن الذي تدور فيه أحداث الرواية. والأماكن التي توجد فيها الشخصيات. والطباع التي تتحكم بسلوكياتهم. والأزياء التي ترتديها. وحتى شكل العمارة. وكنت في طريق عودتي. أسلك شوارع وأزقة لا أعرفها. أتامل هندستها المعمارية وأشكال نوافذها وأبوابها وأقواسها. وأتقصد الدخول في أزقة حي البزورية. أتشمم الروائح المنبعثة من دكاكينها. متذكراً رواية "العطر" لباتريك زوسكند. التي سحرتني إلى فترة. ثم اعتبرتها رواية عادية ولا تستحق الثناء الذي حازته في أوساط القراء. وتمنيت لو أنني أجد وسيلة لمعرفة أسماء الحاجيات الشعبية والبذور والنباتات التي تغص بها واجهات الدكاكين لتعزيز روايتي ببعض النكهة المحلية التي تؤكد أصالتها وفرادتها. وسجلت في دفتر ملاحظاتي بعد أن اتكأت على طرف الرصيف. ضرورة مراجعة كتاب ميخائيل باختين "الزمان والمكان في الرواية". وكتاب "فن الرواية" لميلان كونديرا. و "أوباباكواك" لبرناردو أتشاغا. وطبعاً "كيف تكتب الرواية" للروائي الذي أعشقه صديقي القديم غابرييل غارسيا ماركيز. معتبراً إياه أبي

www.ibtesama.com

الروحي دون منازع، وتمنيت للحظة، لو أنني أمتلك آلة كاتبة كهربائية كتلك التي كتب فيها روايته الشهيرة "مائة عام من العزلة" غير أنني علمت في آخر مقابلة معه قرأتها في الانترنت، أنه استغنى عن آلته القديمة واستبدلها بالكمبيوتر المحمول، وأعترف أنني شعرت بالحزن لأنني لم أعتد الكتابة على الكمبيوتر بعد، وما زلت مجرد حالة ورقية، وكدت أن أتوقف عن كتابة روايتي هذه حين تأملت وضعي المزري وأنا أجلس على كرسي مصنوع من البلاستيك الأصفر منكباً على طاولة المطبخ، وأدخن بشراهة سجائر "الجيتان" وقد امتلأت المنفضة أمامي بأعقاب السجائر كأي كاتب فرانكوفوني مؤجل من المحتمل أن تترجم روايته هذه إلى الفرنسية، وربما سيفوز بجائزة "الغونكور" وهو أمر ليس صعباً تماماً، بعد أن فاز بها منذ سنوات أمين معلوف، وهو الذي أحبه أيضاً، وسأوجه له تحية خاصة يستحقها عن روايته "سمرقند" التي سأقتطف منها حتماً بعض المقاطع التي تخص فصل الحب والعشق حين أجد السياق الروائي الملائم.

ورغم أنني أشعر الآن ببعض النعاس إلا أن حمى الكتابة أصابتني في الصميم، وقررت أن أصنع كوباً من "النسكافيه" وهو المشروب الملائم في حالتي هذه، فعلى الروائي أن يعيش الأرق الليلي وهو يجوس في دهاليز الحكاية وأسرار الخيال وفتنة الخلق، محاولاً تجاهل شاحنة القمامة التي تأتي بزعيقها المزعج كل ليلة في مثل هذا الوقت المتأخر، وهذا ما يثير حنقي إلى أقصى حد.

طبعاً من المستحيل هنا أن أكتفي ببعض السطور العابرة عن "غابو" فهذا الرجل كما قلت قبل قليل أعتبره أبي الروحي، علّمني بشكل ما أن الرواية لا تُكتب إلا كما كتبها هو، بكل غرابتها وسحرها وغوايتها وخداعها الذي يقنعك بكل تواطؤ، أن المخيلة لم تعمل في سطر واحد منها، إنما الوقائع وحدها هي من نسج هذه الحكايات الملعونة من أول سطر فيها إلى آخر جملة في الرواية.

www.ibtesama.com

وكنت قرأت "مائة عام من العزلة" فور صدورها باللغة العربية في مطلع العام ١٩٨٠، وكنت وقتها معلماً وكيلاً بائساً في قرية عند حدود الصحراء، وقد اقتنيتها مع مجموعة من الكتب الأخرى في أول زيارة لي إلى دمشق للتسجيل في الجامعة، وأعتبر هذا التاريخ حداً فاصلاً في علاقتي الجدية مع القراءة، فحين أتذكر أول كتاب قرأته، تحضر في ذهني فوراً خزانة خشبية في الجدار الجنوبي لغرفة جدتي لأمي فضة الجاسم، أول من علمتني إغواء الحكاية، مثلي مثل كل الروائيين العظام، ففي هذه الخزانة وجدت كتيبات مهملة بين حاجيات أخرى، كانت عبارة عن ملخصات لكتاب "ألف ليلة وليلة" وأذكر أنني كنت أقضي ساعات طويلة منبطحاً في أرض الغرفة، أقرأ في دهاليز هذا العالم السحري الغامض الذي لا يختلف كثيراً عن حكايات جدتي التي تثيرني رعباً قبل النوم، خوفاً من السعالي والأفاعي ذات الرؤوس السبعة.

لكن ماركيز قادني إلى عالم أكثر غرابة وهو يجوس في سلالات عائلة بعشرات الأسماء الصعبة والمتداخلة بكل عنفها ووحشيتها وحنانها وبراءتها وسحرها، من دون أن ألتقط خيوط هذه الحكاية في قراءتي الأولى لها. على عكس دستويفسكي في "الجريمة والعقاب" الذي حرمني من الطعام وأنا ألتهم سطور روايته العظيمة هذه، جالساً على عتبةغرفتي في تلك القرية البعيدة، متأملاً أن يتأخر غروب الشمس كي أكمل فصلاً آخر منها، وحتى لا أضطر إلى إشعال لمبة الكاز والقراءة في ظلال هذا النور الخافت، من دون أن أعير احتجاجات أمي أهمية، خوفاً من إضاعة نظري في الكتب.

وحين عدت إلى قراءة "مائة عام من العزلة" بعد عشر سنوات تقريباً، شغفت بها بشكل لا يوصف، واكتشفت دون عناء سبب عشقي لهذا الروائي العظيم، ولقريته العجائبية ماكوندو بفجرها وبشرها المهملين وأسرارها وقدرها المحتوم في الفناء، وانتابني إحساس مباغت أن ماكوندو لا تختلف كثيراً عن قريتي في عزلتها التي تجاوزت ألف عام، لكن ما ينقصني هو شخصية مبهرة مثل

www.ibtesama.com

الكولونيل اوريليانو بوينديا, فطوال حياتي, لا أذكر أن أحداً, مرّ بهذه القرية أو وطأ أرضها برتبة تتجاوز رتبة مساعد أول, وكان الدرك حين يأتون إلى القرية في فترات متباعدة, يثيرون الهواء الراكد في باحة بيت المختار, وقدجاؤوا لتبليغ الشباب البالغين للالتحاق بالجندية, وهو ما يثير مناحة لدى الأمهات, فمن يذهب قد لا يعود إلا محمولاً في تابوت, نتيجة حرب خاسرة ما, في مكان بعيد يصعب تخيله بوضوح يدعى الجبهة,إذ لطالما استمع الرجال بفزع إلى هذا الاسم في المذياع الوحيد الذي يمتلكه عمي, والذي ابتاعه ذات صيف بعيد مقابل نعجتين, واعتبر وقتها أنه أصيب بالجنون لا محالة بعد أن أحضر هذا الصندوق الشيطاني إلى بيته, الأمر الذي جعل جدتي "شريدة". كدت أقول "أورسولا" - تدعو في صلواتها الغامضة إلى الله أن يحمي البيت من الأرواح الشريرة..وقد وضعت أكثر من حجاب في أنحاء البيت أوصت عليها سراً من أحد أولياء الله الصالحين المشهورين بالبركة والمعجزات. أما ريميدوس الجميلة, فلم أجد أفضل من "ثريا" للقيام بدورها, ففي ذلك الصيف القائظ عدت من دمشق بعد انتهاء امتحانات الجامعة, ولم أجد ما أفعله سوى القراءة والنوم الطويل في الظهيرة والذهاب عصراً إلى حقول القطن والجلوس ساعات طويلة عند ضفة النهر, والسباحة أحياناً, وفجأة لمحت هذه الفتاة السمراء التي تشبه الخلاسيات حقاً, في فناء زريبة الأغنام المتاخم لبيت أهلي, وعلمت أنها ابنة الفلاح الذي أحضره والدي من قرية بعيدة في الشمال لزراعة البقول والخضروات, إذ طالما اشتهر هؤلاء ببراعتهم في الزراعة واستثمار الأرض على عكس أهالي المنطقة الذين وجدوا أنفسهم أصحاب أملاك لا يجيدون استثمارها, وظلوا في حنين دفين إلى ليالي الصحراء ورعي الماشية, وإطلاق التنهدات على ذلك الزمن السعيد الآفل.

كانت ثريا في السابعة عشرة من عمرها, طويلة بشعر أسود فاحم ومجعّد, وعينين واسعتين وغمازتين في وجنتيها وصدر نافر. تأكدت أنها ريميديوس بلا جدال, وينبغي التعرف عليها عن قرب قبل أن تطير فجأة في إحدى الملاءات التي

www.ibtesama.com

أتوهمها. ففي الغرفة الطينية المتاخمة لزريبة الأغنام التي تم تنظيفها وترتيبها لتليق بهذه العائلة، كانت ثريا تروح وتجيء في الفناء، وأحياناً كنت أسمع صوتها وهي تتجادل مع أمها رافضة إشعال التنور وإعداد وجبة الخبز الطازجة لوالدها المنهمك في تحضير بذور البندورة والفليفلة والباذنجان في باحة الدار، دون أن يحتج ولو مرة واحدة، على ما يدور حوله من صراخ. فيما جلست ثريا فوق صندوق خشبي، غير مكترثة بدعاء أمها أن تتخلص من هذه البنت التي لا تسمع الكلام ولا تعرف العيب، وكانت تحمل بيدها مرآة صغيرة وقد انهمكت هي الأخرى بوضع المرّود في المكحلة وتكحيل عينيها بأناة.

من نافذة غرفتي الواطئة كنت أتأمل ريميدوس بولَه، إلى أن نهضت فجأة واتجهت إلى بيت أهلي، فتصاعدت دقات قلبي بعنف وقد مرّت أمامي كالعاصفة، كاشفة عن أسنان بيضاء دقيقة ورائحة عطر ريفية نفاذة، أصابتني في مقتل.

في الغروب لمحتها مرة أخرى وهي تجتاز باحة البيت عائدة إلى منزلها، وكدت أصاب بالرعب، حين وجدتها أمامي وقد دخلت غرفتي المفتوحة الباب والقصية عن بقية الغرف، وبادرتني بقولها أنها كانت تنتظر عودتي من الشام، بعد أن حكت لها أختي عني، وأنها عشقتني قبل أن تراني.

لم أنبس بكلمة واحدة، وزاد من ارتباكي أنها كانت تلتفت حولها وهي تنظر إلى الباب، نهضت بصعوبة بعد أن كنت ممداً على بساط من اللباد، ومتكئاً على وسادة من الصوف، أقرأ في كتاب ما أحضرته معي من دمشق. وقفت في مكاني وقلتُ لها: تفضلي. فاعتذرت وقالت: سأراك لاحقاً، وانسحبت ضاحكة وهي تجر وراءها عاصفة أخرى من العطر وأصابتني رعشة في جسدي تشبه الحمى.

في اليوم التالي قررت أن أفتح الدكان المغلق منذ أشهر بسبب انشغالي والدي بالزراعة والسفر الدائم، طلبت المفتاح من أمي التي باركت الخطوة

www.ibtesama.com

واتجهتُ إلى الدكان المتاخم لبيت ريميديوس مباشرة. حين فتحت الباب فوجئت بفوضى المكان وغرابته، إذ تراكمت أكياس السكر والشاي والصابون بعضها فوق بعض.

حاولت أولاً ترتيب الرفوف التي غطاها الغبار، فوضعت الحاجيات المتشابهة في ركن خاص بحسب أنواعها: العطور والأمشاط والكحل والمرايا في ركن، وقطرميزات السكاكر وعلك البطم والبزورات في ركن آخر، والأقمشة والهباري الحريرية في رف، والصابون والزيوت في رف، وهكذا تم ترتيب المكان على نحو مقبول، ثم جلست على كرسي من الخيزران وأمامي طاولة خشبية صغيرة ملفقة، فوقها ميزان حديدي صغير ولها درج بقفل وهو مكان النقود، فتحت الدرج فوجدته فارغاً، إذ اعتاد والدي أن يسحب كل ما يجده في داخله قبل أن يسافر إلى المدينة أو البرية للاطمئنان على مزروعاته البعلية المتاخمة للصحراء، وكان من النادر أن يدفع أحد من الزبائن ثمن حاجياته نقداً، ومن الطبيعي أن أسجّل المشتريات في الدفتر السميك الموجود فوق الطاولة، وقد رتّب والدي صفحاته حسب تسلسل سكنى الزبائن، وهم من أهل القرية على أية حال، ولا يدفعون ديونهم قبل انتهاء موسم القطن أو حصاد القمح.

وكما تتوقعون، وفي غمرة شرودي، دخلت ريميديوس من الباب كالعاصفة، وأخذت تنظر إلى الرفوف بدهشة، ثم اقتربت نحوي، ورفعت الحاجز الخشبي الذي يفصل الرفوف عن بقية الدكان حيث يجلس الزبائن على دكة طينية متوسطة الارتفاع وقد طليت بقشر من الجص، ووقفت إلى جانبي وقد التصق ثوبها الطويل بساقيّ المرتجفتين دون أن أتحرك من مكاني، وأمسكت بزجاجة عطر صغيرة، ثم فتحت غطاءها وشمت محتوياتها بشوق ولهفة وقالت: كم ثمنها؟ قلت دون تفكير: هذه هدية لك، فطار صوابها من الفرح، وأخيراً تجرأت أن أمسك يدها، سحبتها بصمت إلى ركن وراء الباب، تتكدس فيه أكياس السكر والرز، وانحنيت فوقها وقد اتكأت على طرف أحد الأكياس، وأطبقت

www.ibtesama.com

شفتي فوق شفتيها بعنف، بينما كانت تدفعني بكل قوتها محاولة الاحتجاج خوفاً من قدوم أحد، ولم أنهض من فوقها إلى أن بللت سروالي بعد أن أصابتني دوخة عظيمة، لم أعهدها من قبل.

طوال هذا الصيف، كنت ألتقي ريميديوس بعاطفة جياشة، واعتبرت هي أن هذا الحب العاصف سيفضي إلى نهاية سعيدة حتماً، وهكذا لم تمانع أن أبطحها في سواقي حقول الذرة الصفراء في الظهيرة، أو في زريبة الأبقار، أو خلف فناء البيت، أو بين شلول القطن، أو في غرفتي ليلاً، إذ كانت تتسلل بهدوء بعد أن يطفئ أهلي ضوء القنديل، وتتمدد إلى جانبي في الفراش، أجوس هضاب جسدها وغابتها الكثيفة المغلقة على خيزران صقيل، ونهديها الصغيرين الصلبين، ومؤخرتها البضة معترفاً لها بأشواقي التي لا تنطفئ نحوها، ولا أحد ينصت إلى شهقاتها في صمت الليل المطبق سواي.

ازدادت ريميديوس تعلقاً بي وكادت أن تفضح سر العلاقة بيننا، لولا أن أحد الفلاحين الأشداء رآها ذات مرة في حقل، منحنية على شجيرة بندورة تقطف ثمارها، وعندها أحست بخطوات تقترب منها رفعت رأسها فوجدت رجلاً ضخماً ينظر إليها بشهوانية، كما أخبرتني في منتصف تلك الليلة، وقرر على الفور أن يطلب يدها من والدها، فوافق والدها بدون شروط قاسية، وبمباركة أمها التي وجدت في هذا الرجل الشديد البأس الدواء الشافي لفوران ابنتها الفاجرة خوفاً من فضيحة متوقعة، وعندما اكتشفت رد فعلي المتخاذل وهشاشة موقفي، دفنت رأسها في صدري وأخذت تشهق بصوت مرتفع وأنا أحاول تهدئتها خوفاً من اكتشاف أمرنا إذا علا فجأة نباح كلاب قريبة، وأصوات غامضة عبرت الدرب المحاذي لشبّاك الغرفة المفتوح. وحين ابتعدت الأصوات وخفت نباح الكلاب رفعت رأسها إلى الأعلى فجأة نظرت إلى عينيّ في الظلام باستقامة، ثم انقضّت على شفتي بوحشية وتسللت يدها إلى أسفل بطني، تتلمس ذلك الشيء الغامض الذي طالما خافت الاقتراب منه، وأخذت تعبث بوتدي، تريد هدم الخيمة وما فيها.

www.ibtesama.com

غير عابئة بما سوف يحصل لها. وهي تهمس في أذني أنها ستقنع ذلك البهيمة بطريقة حكيمة أنه أول من دخل بستانها. وأول من قطف تفاحها المحرم. وأول من لامس رمانها العالي. وكدت أنهار أمام جسارتها ووحشيتها. وسرعان ما تبلل فراشي وسط لهاثها المحموم.

تلك كانت آخر ليلة ألتقي فيها ريميديوس الجميلة. ذلك لأنها غادرت القرية بعد أيام برفقة عريسها على ظهر حمار إلى قرية مجاورة. تهيأ لي أنها تبتعد كما لو أنها تطير مع الملاحف التي حملها حمار آخر. بعد أن هبت عاصفة رملية مباغتة أطاحت بهدوء القرية وسكينتها. وأثارت اضطرابي المخادع ورغبتي في الخروج من القنوط الذي أصابني فجأة. وكما فعل ماركيز. حاولت أن أجد حلي الخاص للأحجية في الاستمرار أو تمزيق روايتي المزعومة. لكن ما شد عزيمتي أنه أسرّ في أذني قائلاً: "إن كتابة الرواية هي أشبه ببناء الآجر. ومن الممكن العودة للبدء فيها من جديد". وهكذا رحت أردد وأنا أقضم تفاحة ذابلة: "اللعنة. كيف يمكن أن تُكتب رواية؟".

كان عليّ أن أبحث عن تلك النسخة النفيسة من كتاب "طوق الحمامة" فالنسخة التي وجدتها في مكتبتي بدت وكأنها مختزلة. وهكذا أمضيت طيلة المساء بين رفوف المكتبة الظاهرية. أفتش عن هذا الكنز متلبساً روح أمبرتو ايكو في "اسم الوردة" وهو يبحث عن مخطوط غامض موجود في مكتبة أحد الأديرة القديمة في إيطاليا. وفي غمرة بحثي المحموم عن المخطوط ـ وأنا أتمنى ألا أجده بسهولة ـ وقع بصري عليه في الرف الثاني من الجهة الجنوبية للقاعة. سحبته بسرعة. وخاب أملي حين وجدته أنيقاً وكأنه مطبوع للتو. حملته بين يدي واخترت ركناً قصياً في المكتبة. ورحت أقلب صفحاته وكأنني لم أقرأه من قبل ثلاث مرات على الأقل في فترات متباعدة. لكن ما أثار شهيتي هذه المرة التوطئة التي كتبها ابن حزم. واعتقدت أنها مفتاح روايتي. وتخيلت نفسي أتجول في أحد أروقة قصور قرطبة بين أشجار الرمان. أردد قصيدة كتبتها عن

www.ibtesama.com

الصبابة في الحب، أو عن الإشارة بلحظ العين. ولولا الضحكة العالية التي أطلقتها أمينة المكتبة على الهاتف لما استيقظت من تأملاتي. عدت إلى الصفحة الأولى من الكتاب وقد أغراني أسلوب الأسلاف في توطئة مخطوطاتهم، بأن أبدأ الرواية هكذا: "كلّفتني أعزك الله أن أصنّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه من وله على سبيل الحقيقة لا متزايداً ولا مفتناً، لكن مُورِداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه. والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته غيابتي وحدثني به الثقاة من أهل زماني، فاغتفر لي الكناية عن الأسماء، فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما أننا نحافظ في ذلك على صديق ودود ورجل جليل.

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقاة، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أن أتحلى بحليّ مستعارة، والله المستغفر والمستعان، لا رب غيره".

وحين انتهيت من نسخ هذه التوطئة، كتبت على صفحة أخرى بعض العبارات التي أعجبتني كهذه العبارة: "الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد - دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل". ثم وضعت تحتها خطاً، وأنا أنظر بطرف عيني إلى الفتاة التي كانت تجلس قبالتي، والتي كانت تتردد إلى المكتبة في الأسابيع الأخيرة، وحين رفعت عينيها عن الكتاب الذي بحوزتها، اكتشفت أنني أراقبها فابتسمت لها ودفعت بالورقة نحوها،مستمداً الجرأة من أبي محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. وما أن أكملت قراءتها حتى امتقع وجهها وقذفت بالورقة نحوي، فاضطررت للانسحاب على الفور. وعندما خرجت إلى بهو المكتبة، أسرعت الخطا نحو

www.ibtesama.com

الباب الخارجي متنشقاً رائحة الخيبة في متاهة الأزقة القديمة. وكان المطر يتساقط خفيفاً. ينهمر على الشارع.وكدت أصرخ: "بيجي. أعطني قبلة..".

انقطعت مدة أسبوعين عن الذهاب إلى المكتبة الظاهرية. وانشغلت في هذه الأثناء بترتيب فوضى مكتبتي. وقد اتخذت قراراً حاسماً بالبطش بكل ما يقع تحت يدي من كتب تافهة. وخصوصاً تلك التي وصلتني على شكل إهداءات مدججة بكل أنواع الإطراء من نوع: إلى صاحب القلم الشفاف الذي لا يهادن. أو: مع مودتي البالغة.. أو: أرجو أن أقرأ رأيك مكتوباً في هذا الكتاب.

وكنت آنذاك. أي قبل نحو عشر سنوات. أعد برنامجاً إذاعياً بعنوان: "صدر حديثاً" في إذاعة صوت الشعب التي من النادر أن يستمع إليها أحد. كما كنت أكتب بعض المراجعات الأدبية في الصحف المحلية. مما جعل مكتبتي تعج بمثل هذه الكتب البائسة التي تسللت إلى رفوف المكتبة بأعداد كبيرة مثل مستعمرة للجرذان في بيت مهجور. وأشد ما أثار حنقي أني وجدت كتاباً لبعض هؤلاء. وقد اندس بين "دون كيخوته" و "البحث عن الزمن المفقود". أو بين أعمال تشيخوف. وملحمة جلجامش. وأمسكت بالجرم المشهود كتيباً شعرياً لشاعر يعمل في دائرة الخدمات الفنية بإحدى البلديات فألقيته أرضاً بالضربة القاضية. وكانت حصيلة الغزوة الأولى ما لا يقل عن مئة وخمسين جثة. وزيادة في الإهانة قررت أن أهديها إلى جاري الكوّاء باعتباره مطرباً شعبياً. رغم أنه يتأتئ على نحو مكشوف. ولم أفكر في بيعها إلى أصحاب بسطات الكتب على الأرصفة. كما سيقترح بعضكم. وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء سيعتذرون مباشرة عن شراء مل هذه البضاعة لمعرفتهم العميقة بأنواع الكتب وقيمتها الحقيقية لدى القراء. وكذلك لقطع دابرها فوراً ودفنها في مكان لا تمتد إليه الأيدي. وهناك سبب مقنع آخر يتعلق بحكاية حقيقية جرت معي منذ سنوات. إذ قررت أن أشذب مكتبتي من كل ما علق بها من شوائب وأشنيات وطحالب. مثلما أفعل الآن. فأحضرت أحد باعة كتب الرصيف إلى بيتي وعرضت عليه البضاعة التي

www.ibtesama.com

قررت الاستغناء عنها، بعد أن وصلت إلى قناعة أن معظم مقتنياتي من الكتب لم تعد مفيدة بالنسبة لي رغم أهميتها، لكنني لن أحتاج إليها مرة أخرى، فما حاجتي اليوم إلى "رسائل روزا لوكسمبورغ" أو "مختارات لينين" أو "هكذا سقينا الفولاذ" أو روايات إحسان عبد القدوس، أو أشعار ناظم حكمت، أو مجلة الموقف الأدبي، إضافة إلى كميات كبيرة من الدواوين الشعرية لشعراء عرب وبلغار وسوفييت وروايات ودراسات فلسفية وتاريخية وعلم اجتماع وتراث.

وأوصيت البائع أن يشق صفحة الإهداء، فوعدني بذلك بكل طيبة خاطر، وقد سال لعابه لهذه الصفقة الرخيصة الثمن، غير أنه لم يفِ بوعده وأنزلها كما هي على الرصيف في أول يوم جمعة بعد الاتفاق دون أن يشق صفحة الإهداء طبعاً، وهذا ما أثار مشكلة مع أصحاب هذه الكتب، وعاتبني البعض على فعلتي الشنيعة.

وأحدهم كان كتب لي إهداء كالتالي: "إلى البدوي الجميل في مدن الهباء" لكن البدوي الجميل باع الكتاب بعشر ليرات فقط.

بعد نحو ساعتين من هذه المعركة الضارية تكدست على الأرض عشرات الكتب وبعض الأوراق التي كنت أدسها على عجل بين الرفوف، وهي عناوين لأصدقاء أو مقالات مقصوصة من صحف أو فواتير كهرباء أو بطاقات بريدية.

وفي الوقت ذاته كنت أكتشف كتباً اعتقدت أنها ضائعة أو ليست بحوزتي أساساً، إذ طالما تعرضت مكتبتي للنهب والسرقة من أصدقائي تحديداً رغم الحيطة الشديدة والوسائل الدفاعية السّرية لحماية هذه الأرواح المسجونة بين أغلفة الكتب، ومن هذه الوسائل السرّية أنني صنعت ختماً خاصاً يحمل رسماً لرجل مفتوح الذراعين، وكنت أختم كتبي الجديدة به في صفحة محددة هي الصفحة (١٣)، وهكذا حين أزور بعض أصدقائي الذين أشك بأنهم من لصوص الكتب أقف أمام المكتبة ببراءة فيما يكون الصديق يصنع الشاي في المطبخ،

www.ibtesama.com

وآخذ بتقليب الكتب التي أشكُّ في أنها ملكي باحثاً عن الصفحة (١٢)، ولم يخب ظني في أغلب الأحيان.

الكتب التي أحتاجها لهندسة روايتي وضعتها جانباً ولم أعدها إلى مكانها في المكتبة، وهي تفوق ما كنت أعتقد أنني بحاجة إليه، لكن ما أعاد الطمأنينة إلى روحي الروائية، أن الآجر المطلوب للعمارة الروائية أخذ يتبلور في ذهني بجلاء، إذ انتهت تصوراتي إلى تقسيم الرواية إلى ثلاثة أبواب، تتفق مع مطلب "ياسمين زاد" للتاجر البغدادي الذي تخيلته في مقهى النوفرة: باب الحب، وباب الفراق، وباب الموت.

وها أنا أنهمك بشغف في كتابة ملاحظات تتعلق بباب الحب جنباً إلى جنب مع ملاحظاتي حول كيف تُكتب الرواية، وقد أخذتني الحيرة بين عدة تقنيات للسرد: نصائح ماركيز، ووصايا ايتالوكا لفينو، وجنون ميلان كونديرا، وهذيان بورخيس، وغواية "ألف ليلة وليلة"، وواقعية بلزاك، وطبيعة إميل زولا، ومقامات الهمذاني، هذا التشتت أصابني بدوار حاد، ولأنني أضيق ذرعاً بالعمل الأكاديمي والتخطيط الصارم في الكتابة وفي الحياة ذاتها، دوّنتُ الملاحظات التي جمعتها إلى الآن كما كتبتها تماماً وحسب ورود تسلسلها، فكانت هذه الكيمياء العجيبة في مختبري الروائي: سانت بوف (هل تعرفونه؟) يقول: "الرواية حقل فسيح من الكتابات التي تتخذ لها سيرة الاقتدار على التفتح على كل أشكال العبقرية، بل على كل الكيفيات، إنها ملحمة المستقبل"، أما ماركيز فيجد كتابة الرواية كنوع من الألغاز عن العالم وشفرة سرّية، حيث تحدث أشياء غير متوقعة في مسار الكتابة، لأن الواقع ليس مقصوراً على سعر الطماطم والبيض، كما يعتقد الأوروبيون.

ويختزل كونديرا الرواية بعبارة بليغة: "سيرة الكائن المنسي" ولعل هذا ما أحتاجه "فحص ما يدور في الداخل"، و"الكشف عن الحياة السرّية للمشاعر"، وهو لا يكتفي بهذه البلاغة، بل يغوص أكثر عوضاً عني في الانتقام من آلاف

www.ibtesama.com

الصفحات التي كتبها روائيون عن الحرب بما فيهم تولستوي، ولم يبقّ من رواياته في ذاكرتي سوى خيانة "آنا كارنينا" النبيلة، فهو يقول: "كانت الحرب لدى هوميروس ولدى تولستوي تملك معنىً واضحاً كل الوضوح: فقد كان الناس يتقاتلون من أجل هيلين الجميلة أو من أجل روسيا. في حين يتجه شيفيك ورفاقه نحو الجبهة دون أن يعرفوا لماذا لا بل. وهو ما يصدمنا أكثر. دون أن يهتموا بذلك". هذا ما أبحث عنه بالضبط، إذ لطالما احتقرت الروايات التاريخية التي تتحدث عن العثمانيين والمستعمر الفرنسي وما شابه.

إنني، بكل صراحة وجلاء أكتب هذه الرواية من أجل هيلين الجميلة، وهي ليست واحدة على أية حال، ففي كل زمن أقول هذه هيليني الأخيرة لتولد بعدها هيلين وهيلين وهيلين، فأنا لست محارباً في أسبارطة أو السفر برلك،أو الشيشان أو أفغانستان، أو البوسنة والهرسك، إنني أكره الحرب، ولا أتصور نفسي ذات يوم أضغط على الزناد لقتل شخص ما حتى لو كان عدوي، أو أغرز سيفي في خاصرة أحد المشركين، أو أجدع أنف أحدهم لنصرة الإسلام كما يحدث في المسلسلات التاريخية، ولا أريد أن يكون اسمي عكرمة أو دوقلة أو نُهيش، فقط أريد أن أعيش بسلام وأن أكتب هذه الرواية بمتعة وشغف، مثل "إله محايد ينظف أظافره بصمت" حسب تعريف جيمس جويس للروائي، أو كما ورد تعريف مادة "روى" في لسان العرب وهو ببساطة: "جريان الماء".

نعم هذا ما أحتاجه: رواية تشبه جريان الماء في النهر، هادئة في الأرض المنبسطة وعنيفة في المنحدرات، رواية بلا ضفاف، تعج بالأسماك والحيتان والسعالي والجنيات والأفاعي، رواية كل الروايات من القرن السادس عشر، حين كتب شكسبير "روميو وجولييت" إلى أنطونيو سكارميتا، صاحب "ساعي بريد نيرودا" ومن أبي عثمان الجاحظ بن بحر وأبي حيان التوحيدي إلى آخر رواية عربية مجهولة المؤلف منعتها الرقابة بسبب بضع عبارات تخدش الحياء العام، أو تخوض في المحرمات. ومن المستغرب حقاً أن مثل هذه العبارات التي تهزّ اليوم

www.ibtesama.com

أركان شيوخ الأزهر وفقهاءه، وتستدعي إقامة الحد على مؤلفيها وربما هدر دمهم. كانت في عهود أسلافنا تدخل في باب الرأي والعلم بالشيء والمسامرة لا أكثر. فمن يجرؤ اليوم على طباعة خمريات أبي نواس، أو الشعر المكشوف الذي أورده الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد"، أو المخطوط الأصلي من "تحفة العروس" للتجاني،أو "أدب النكاح" للإمام الغزالي، أو "الروض العاطر" للنفزاوي. فخلال بحثي المحموم عن كتب العشق في التراث العربي - وهي بالمئات - أحسست أن الحياة تقف رأساً على عقب، وأن ما نسميه اليوم محرمات ومسكوت عنه - خصوصاً في باب الجنس - هو مجرد عبث أطفال. وكدت أنساق وراء هذه النصوص التي تكفي وحدها لإنجاز رواية إيروتيكية محضة بإمكانها أن تبز أكثر الكتب رواجاً، بما فيها كتاب الشيف رمزي عن الطبخ، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، وأطلق عليها الاسم ذاته الذي اختاره أبو الحسن علي بن محمد الديلمي قبل قرون بكل حسيته ودلالته: "عطف الألف المألوف على اللام المعطوف"، على أن تكون رواية القارئ بامتياز بوصفه شريكاً، لا متلقياً فحسب، لأن هذه الإحالات هي جزءاً من ذاكرته، وعليه وهو يتجوّل في هذا البستان أن يبذل جهداً هو الآخر في استعادة ما جرى من أحداث مشابهة جرت معه، وأن يضفي على الشخصيات التي يعرفها جيداً شيئاً من خياله، فهو ببساطة يستطيع بقدر من الخيال وإشعال الذاكرة أن يجسّد روح فينوس في جسد جارته في البناء حتى لو كانت مجرد عاملة في مصنع للشوكولا أو في مشغل خياطة، كذلك بإمكانه أن يستعير جسد جوليا روبرتس في فيلم "عرض مشين" ويحتضن بعنف الفتاة التي وعدها بالزواج ريثما تتحسن الظروف، ولو في مدخل عمارةٍ قيدَ البناء بعد رشوة الناطور بالطبعً، أو في صالة سينما، أو أي مكان لا يثير الشبهات، وهذه المقترحات ليست مجرد فرضية، إنها حقيقة مؤكدة وتشفي من علل لا تحصى. خذ الجنود مثلاً وخاصة في نوبات الحراسة الليلة، إنهم يفكرون بحبيباتهم البعيدات طوال الوقت، أكثر

www.ibtesama.com

مما يفكرون في الانقضاض على عدوى مفاجئ، أو التأكد من المدى المجدي للكلاشينكوف، وأول ما يفعلونه بعد استلام الغرف الخاصة بهم هو إلصاق صور الممثلات فوق أسرّتهم وليس صور الزعماء والقادة التاريخيين، وذلك لسبب وحيد هو التكيّف مع الحياة الجديدة الخشنة، واستعارة هؤلاء النجمات وسحبهنّ إلى تحت البطانيات بلا رحمة، لدرجة أنهم ينسون "كلمة السر" التي ينبغي ألا ينسوها في نوبة الحراسة القادمة، لكنهم في غمرة تخيلهم وانهماكهم - كل على حدهْ - في استحضار روح ليلى علوي أو مارلين مونرو أو سعاد حسني، يكون على استعداد تام لتسليم مستودع الذخيرة بأكمله، وكل الخرائط السرّية التي بحوزته وتصبح هي الوطن المشتهى والمفدى، وحتى حين يجد نفسه في الخندق المواجه لدبابات العدو مباشرة والقنابل تنهمر على بعد سنتمترات قليلة منه، فإنه يرتعد ليس خوفاً من الموت أو الأسر والتعذيب كي يعترف بكل الأسرار العسكرية التي يعرفها كما يتبادر إلى ذهن البعض، إنما فزعاً ألا يرى حبيبته مرة أخرى، فهذا يعني الجحيم بعينه. وليس عبثاً أن الأمريكان في حرب فيتنام وقبلهم الألمان، كانوا يرسلون العاهرات بالطائرات إلى خطوط النار لإطفاء الحرائق المشتعلة في أجساد الجنود كي يستعيدوا بأسهم مرة أخرى في المواجهات الضارية مع العدو.

وهكذا فإن من واجب القارئ أن يستحضر مخيلته الخاصة لبث الروح في هذه الكائنات التي اخترعها المؤلفون بالطريقة ذاتها، مثل أي حالة تناص كما هو حاصل في الرواية التي أنوي كتابتها تماماً، فعلى طاولتي في هذه اللحظة عشرات الكتب التي انتقيتها من رفوف المكتبات، وكنت قرأتها في أوقات مختلفة وبأوضاع نفسية لا أتذكرها الآن ولا أعلم بالضبط لماذا أعجبت آنذاك بهذه الرواية إلى حد الشغف، ولماذا لم أكمل رواية أخرى، ولماذا كنت مهتماً في زمن ما بأعمال فرويد وولهلم رايش ويوسف إدريس وأشعار بوشكين.

www.ibtesama.com

وكي أحل هذه المعضلة ببساطة أعتبر أن الحياة ذاتها حكاية بزمن لا متناهٍ، وأن روح الكائن تتشكل على مهل، مثلها مثل أية حكاية حقيقية أو متخيّلة وراءها سرّ ما: خاتم أو مصباح يتلاشى الحلم مجرد أن نلتقط أحدهما.

يقول بورخيس في وصف سحر الحكاية في "ألف ليلة وليلة": "تولد القصص داخل القصص أثراً غريباً، أثراً لا حدّ له، وأقرب إلى الدُّوار. والكتّاب منذ ذلك الحين يقلّدون ذلك". ومن أجل إشادة قصر "ألف ليلة وليلة" استلزم هذا أجيالاً من الناس، هؤلاء الناس هم دائنونا الذين ورثنا عنهم هذا الكتاب الذي لا ينضب. الزمن اللامتناهي لألف ليلة وليلة، يتابع مجراه.."

وبناء على هذا التوالد أعتقد أن فولكنر عندما كتب "الصخب والعنف"، لم يفكّر إطاحة أمجاد بلزاك، وأن ماركيز الذي يبجّل فولكنر إلى حد العبادة لم يفكّر هو الآخر باختراع الواقعية السحرية كدواء جديد للروائيين الهواة، فللكلمات أسرارها الغامضة التي تهز القلوب النائمة أو تحيلها إلى رماد. وأرغب هنا باستعادة مقطع من قصة لإيرابيل الليندي عنوانها "كلمتان"، كنت دونته للاستفادة منه لاحقاً، وسوف أحاول اختزاله رغم صعوبة ذلك:

"كان اسمها العجيب هو بيليسيا كريبو سكولاريو، وهو اسم لم يأت من شهادة العماد أو من سداد بصيرة أمها، وإنما بحثت هي نفسها عنه إلى أن وجدته ولبسته. كانت تمتهن بيع الكلمات، وتجوب العالم قاصدة المهرجانات والأسواق لتنصب أربعة عصي ومظلة من أكياس تحتمي تحتها من الشمس والمطر أثناء تلبيتها طلبات زبائنها. لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، فلكثرة ما تنقلب من مكان إلى آخر صار الجميع يعرفونها، كانت تبيع بسعر مناسب، فبخمسة سنتافو تقدم أشعاراً مرتحلة، وبسبعة تحسّن من نوعية الأحلام، وبتسعة تكتب رسائل للمحبين، وباثني عشر تعلّم شتائم محدثة لأعداء لدودين. ومن يشتري منها بخمسين سنتافو تهمس له في أذنه كهدية بكلمة سرية لها قدرة على إبعاد الكآبة. ولم تكن تقول الكلمة ذاتها للجميع بالطبع، فكل

www.ibtesama.com

واحد يتلقى كلمته التي لا يستخدمها لهذا الغرض أحد سواه في الكون الرحب كله".

و"في صباح يوم من أيام آب . وكانت تحت مظلتها تبيع كلمات في العدالة لشيخ يطالب براتبه التقاعدي منذ أحد عشر عاماً . داهم الساحة رجال الكولونيل بقيادة الخلاسي المعروف في جميع أرجاء المنطقة بسرعة مديته وبولائه لقائده. وسألها: أأنت التي تبيع الكلمات؟ فردت:في خدمتك.

وحملوها إلى الكولونيل وقد فقدت وعيها. وعندما استيقظت سألها الكولونيل: أيمكنك أن تبيعيني الكلمات اللازمة لخطاب انتخابي؟

كانت قد كلفت بأعمال كثيرة. لكنّ أياً منها لم يكن بمثل هذه الصعوبة. ومع ذلك لم تجد الشجاعة للرفض لأنها خافت أن يطلق عليها الخلاسي رصاصة ما بين عينيها. أمضت بائعة الكلمات طوال تلك الليلة وقسطاً كبيراً من نهار اليوم التالي باحثة في فهرسها عن أكثر الكلمات ملاءمة لخطاب رئاسي. استبعدت من ذهنها الكلمات الفظة والجافة. والكلمات شديدة التملق والباهتة والمستهلكة من كثرة الاستخدام. والتي تقدم وعوداً لا جدوى منها والخاوية من الحقيقة. عندما قرأت الخطبة بصوت عال ثلاث مرات لمحت عيني الكولونيل تشعان بالحماس. كان واثقاً أن كرسي الرئاسة قد أصبح ملك يديه بهذه الكلمات. وسألها: كم الأجرة يا امرأة؟ بيزو واحد يعني مائة سنتافو أيها الكولونيل. ليس غالياً. قال قائد وهو يفتح محفظة جلد الغزال. وقالت: ولك الحق كذلك بكلمتين سريتين.

ومنذ أهدته هاتين الكلمتين السريتين. ازدادت شعبيته في كل البلاد. لكنه أخذ يذوي يوماً بعد آخر بسبب هاتين الكلمتين اللتين انغرستا في بطنه. وعندما أحضر رجاله بائعة الكلمات. أدركوا أن الوقت قد فات للتخلص من هاتين الكلمتين اللعينتين لأنهم استطاعوا جميعهم أن يروا عيني أسد البوما

www.ibtesama.com

الضاريتين وهما تتحولان إلى عينين وديعتين، حين تقدمت منه دون أن تبتسم وأمسكت بيده".

أدركُ الآن أكثر من أي وقت مضى بما لا يدع مجالاً للشك، أن الكلمات تروّض الوحوش الكاسرة، ولكن تلك التي تشع في أقصى حالات الظلمة، وأن عبارة "أعطني جملة مفيدة تتألف من مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل ومفعول به" تلك التي كانوا يطلبونها منا في دروس النحو في المدرسة الابتدائية، ليست مجرد عقوبة لنا أو بلاهة مدرسين قساة، إنما هي اختزال للمعنى، وتمارين للمخيّلة في أن تخترع جملة مفيدة، وأن الروايات التي تبقى في الذاكرة مثل حلم هي جمل مفيدة حتماً، كتبها أصدقاء مجهولون لنا لأجل إسعادنا وتخفيف أثقال الحياة التي حوّلت معظم البشر إلى دواب وبهائم تعدو وراء العلف، وترتكب الجرائم تحت مظلة العدالة والقانون، ولو أن الحكّام والشرطة ورجال المخابرات التعساء، يقرؤون الروايات لما كانوا على هذه الصورة من الجلافة والخواء، فشهريار الذي اعتاد فض بكارة امرأة كل ليلة وقتلها في الصباح، لم يجد وسيلة للتخلص منها كعادته أمام سطوة الحكايات التي كانت تخترعها شهرزاد فاضطر إلى تأجيل قتل هذه الجدة العظيمة إلى اليوم، وربما إلى الأبد، بعد أن خلّفت وراءها سلالات من الحكّائين والرواة في مختلف أرجاء الكون،وكان من بين أشهر أحفادها غابرييل غارسيا ماركيز نفسه، الذي استعار بعض خصائص أسلوبها في الحكي، وكذلك إيرابيل الليندي صاحبة القصة التي رويتها قبل قليل، وعشرات من جداتنا المجهولات اللواتي امتهنّ رواية الحكاية قبل النوم مثل شهرزاد تماماً، دون أن يحالفهن الحظ في الشهرة.

وها هو ماركيز نفسه يعترف أن: "نصف الحكايات التي بدأت بها تكويني سمعتها من أمي، إنها الآن في السابعة والثمانين، وهي لم تسمع مطلقاً أي كلام عن الخطاب الأدبي ولا عن تقنيات السرد، ولا عن أي شيء من

www.ibtesama.com

هذا ولكنها تعرف كيف تهيئ ضربة مؤثرة وكيف تخبئ ورقة آس في كمها خيراً من الحواة الذين يخرجون مناديل وأرانب من القبعة. ويقول أيضاً في "نزوة القص المباركة": "أنا مقتنع أنا العالم ينقسم بين من يعرفون كيف يروون القصص ومن لا يعرفون ذلك، مثلما هو منقسم بمعنى أوسع بين من يتغوطون جيداً ومن يتغوطون بصورة سيئة".

حسناً هذا ما أود القيام به، أن أهيئ ضربة مؤثرة ولكن "كيف تُحكى حكاية؟". "وكيف يتم رصد تفاصيل نزوات ذهاب وإياب المخيلة والإمساك فجأة باللحظة الدقيقة التي تنبثق فيها فكرة، مثل الصياد الذي يكتشف فجأة في منظار بندقيته اللحظة الدقيقة التي يقفز فيها الأرنب".

في أقصى حالات عزلتي الروائية هذه اتصلت بإحدى الصديقات هاتفياً، واقترحت عليّ أن نخرج معاً. وافقت على الفور طبعاً، وفي ذهني أن أموري العاطفية معها تستوي على نار هادئة، وأن الثلاثة آلاف كيلو متر التي قطعناها معاً مشياً على الأقدام خلال الأشهر القليلة الماضية في شوارع دمشق، لم تذهب عبثاً، وأن موعد القيلولة الكاملة معها صار قاب قوسين أو أدنى.

ارتديت ملابسي على عجل وتركت أوراقي على الطاولة كما هي. وبعد دقائق كنت في ساحة السبع بحرات أنتظرها على ركن الرصيف مثل أي عاشق مرتبك. وحين جاءت مددتُ يدي لمصافحتها ومشينا على الفور دونما هدف كالعادة، فبادرتني أنها تشعر بملل وقرف وتفكّر بالسفر، فأجبتها مثل أي حكيم هندي بهدوء:

ما ينقصك هو الحب، أنت تشعرين بفراغ عاطفي وأنا أتكفل بهذه المهمة. رمقتني بازدراء مع ضربة من يدها على كتفي، ووجدتها فرصة سانحة كي أتأبط ذراعها، لكنها سحبت يدها بسرعة قائلة: أنت مجنون. فقلت: مجنون بحبك.

www.ibtesama.com

كنا ننحدر باتجاه ساحة فكتوريا، ثم صعوداً إلى شارع الحجاز، وحين حاذينا محطة الحجاز للقطارات اقترحت عليها أن نتناول القهوة في مقهى المحطة. ففي باحة محطة القطار الداخلية قررت إدارة السكك الحديدية، استثمار عربة أحد قطاراتها القديمة وتحويلها إلى مقهى، وكانت هذه العربة هي نفسها التي صعد إليها السلطان العثماني عبد الحميد مدشناً أول رحلة للحجيج بين دمشق والمدينة المنورة في ٢٢ آب من العام ١٩٠٨، واستغرقت الرحلة زهاء خمس وخمسين ساعة. وفي المقصورة ذاتها جلسنا متقابلين نحتسي القهوة في عزلة عن بقية الطاولات المتناثرة داخل العربة، وكنت أفكر في الحج إلى ديارها بزمن قياسي، فمددت يدي ووضعتها فوق أصابع يدها معتبراً أنها مأخوذة بروعة المكان مثلي، ومسحورة بمعلوماتي عن تاريخ المحطة التي صمم مخططاتها قبل نحو مئة عام المهندس المعماري الإسباني فيرناندو ديراندو،واضعاً نصب عينيه جماليات العمارة الإسلامية، فجاءت تحفة فريدة في طرازها المعماري كأكبر محطة للقطارات آنذاك في الدولة العثمانية، لكنها في حقيقة الأمر كانت شاردة وقد خرجت لمجرد تزجية الوقت، فنهضت فجأة قائلة: دعنا نذهب، أمضينا نحو ساعتين من التسكع في الشوارع من قلعة دمشق إلى الرصيف المحاذي للجامع الأموي نزولاً إلى القيمرية، ثم ساحة باب توما إلى العباسيين حيث تقطن، وتجرأت أن أودعها بقبلة خاطفة عند مدخل البناية، ثم أوقفت تكسي وعدت إلى البيت بخفة الكائن التي لا تحتمل، ليس بسبب القبلة فهذا الأمر حصل مراراً، بل لاعتقادي الحتمي أنني وجدت مفتاح روايتي أخيراً، فكل المفاتيح السابقة التي جربتها من قبل كانت تصطدم بأقفال صدئة وأبواب لا تفتح، وحين تفتح فإن خطواتي لا تتجاوز الممرات الضيقة للبيت الذي أنوي تأثيثه بأرواح شخصياتي ومصائرها المؤجلة.

ولم يحزّني الأمر كثيراً، فأنا ما زلت في طور التحضير لارتكاب مثل هذه الحماقة مدفوعاً في هذه اللحظة بقول غاستون بلاشلار في "جماليات المكان"،

www.ibtesama.com

أنه في مجال الأفكار ليس هناك من حقيقة أولية. فمن تصحيح إلى تصحيح آخر نأمل الوصول إلى فكرة صحيحة. فليس هناك إلا أخطاء أولية. فالفكرة العلمية لديها ماضٍ طويل من الأخطاء الأولية. بينما الخيال فلا ماضي لديه. وشاعريته هي لحظة الكلمة مخالفة ومتناقضة مع كل تحضير. وهذا ما يحصل معي تماماً: جملة أخطاء أولية لا أكثر. ولأنني رجل خيال لا رجل علم. فإنني أعتبر أن كل ما يثير خيالي بإمكانه أن يقودني إلى فكرة صحيحة في تأليف روايتي المخادعة.

وفي التكسي كانت تتشكل الصورة الأولى في ذهني من محطة الحجاز للقطارات تحديداً. إذ طالما أثارني هذا المكان أثناء مروري بمحاذاته وهو ما يحدث كثيراً. لكنني اليوم وبعد أن هبطت الدرجات القليلة خارجاً من مقصورة السلطان عبد الحميد برفقة لمياء راودني إحساس مفاجئ أنني أمسكت بطير الحُر. دون عناء الصيادين.وقررت أن تبدأ أحداث روايتي في إحدى الرحلات الأولى للقطار الذاهب من دمشق إلى حيفا قبل مائة عام من الآن بين شاب دمشقي وامرأة تركية حسناء قادمة من اسطنبول. كانت تريد الالتحاق بزوجها الذي عيّن قبل أشهر كاتباً في ديوان والي القدس. وكيف تجمعهما مقصورة واحدة. وبدلاً من أن يتحدثا عن معجزة السفر السريع بالقطارات. أمضيا نحو ست وثلاثين ساعة من المجون. إلى درجة أن يتحول هذا الكائن إلى مجرد خرقة تمشي على قدمين وهو ينزل أخيراً كالسائر في نومه عند رصيف ميناء حيفا.

وكنتُ طوال الساعتين اللتين قضيتهما مع لمياء في الشوارع. مأخوذاً بهذه الفكرة. أستدرجها بشكل مباشر نحو تصورات جنسية بحتة في مقصورة السلطان عبد الحميد. كأن أقول لها: ماذا لو أسدلنا ستارة نافذة العربة وتحرك القطار بمعجزة. أعتقد أن خمساً وخمسين ساعة تكفيني لتحطيم أضلاعك. ورغم احتجاجها على الفكرة إلا أنها انساقت وراء اللعبة. وفي زقاق

www.ibtesama.com

ضيق لا يتجاوز عرضة متراً واحداً. التفتت نحوي فجأة قائلة بتصميم: أنا من سنحطّم أضلاعك ولست أنت. لدي من الخبرة ما يكفي وقوداً لتسيير قطار إلى البحر الأحمر. ضغطتُ على يدها بعنف وجررتها ورائي إلى نهاية الزقاق الضيق المظلم. وقلت لها: ماذا لو بطحتك هنا؟ لكنها أفلتت ونفضت معطفها من التراب الذي علق به ورتبت هندامها غير عابئة بنظرات المارين.

طبعاً لم أكشف لها خططي في كتابة الرواية. فهي لا تعرف شيئاً عن اهتماماتي الأدبية خارج عملي كأمين مكتبة في وزارة التربية عدا بعض المقالات والقصص العابرة التي كنت أنشرها في الصحف المحلية. وكنت تعرفتُ عليها منذ سنة على الأقل عندما جاءت لاستعارة كتاب "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي بعد أن سمعت عنه كثيراً. ولم يكن الكتاب موجوداً في المكتبة بالطبع. فقلت لها: سأحضر لك الكتاب من مكتبتي الخاصة. واتفقنا على موعد آخر. لكن أثناء خروجها أثارتني مؤخرتها المحشوة بسروال جينز ضيق. وقبل أن تصل إلى الباب قلت لها: ما رأيك أن نلتقي اليوم مساءً وأحضر لك الرواية. صفنت قليلاً ثم هزت رأسها بالموافقة. واتفقنا على اللقاء في "نادي الرواق". وكدت أطير بأجنحة الرغبة. قبل الموعد بنحو ساعة اتجهت إلى مكتبة نوبل لشراء نسخة من الرواية بعد أن تورطّتُ بوعدي لها. ولم أكن قرأتها بعد. وأصابتني حالة من النفور تجاه هذه الرواية التي أصبحت حديث الأوساط الأدبية وحتى سيدات المجتمع وربات المنازل.

ابتعت نسخة تحمل دمغة الطبعة العاشرة وقررت الذهاب إلى موعدي مشياً. فاخترقت شارع الحمراء لتغذية مخيلتي بعشرات الصور المثيرة لأجساد متلاطمة كيوم الحشر. صعوداً إلى ساحة عرنوس ثم الطلياني إلى العفيف حيث يقع مكان اللقاء.

كانت لمياء مدرّسة سابقة لمادة الفنون النسوية قبل أن تنتقل إلى الوزارة كسكرتيرة تنفيذية في المسرح المدرسي. وكنت ألمحها في الممر أحياناً دون أن

www.ibtesama.com

أفكّر في التعرف عليها لاعتقادي أن هذه اللبوة المتمردة صعبة المراس، وقد سمعتُ عنها حكايات كثيرة لا تسر خاطر الآخرين، لكنها تسر خاطري بالطبع، فما المانع أن أكون أحد ضحاياها، المهم أن تأتي اللحظة المناسبة للفت انتباهها نحوي، والتقرّب منها، وها هي اللحظة تأتي ماشية على قدميها.

كنت وصلت الموعد قبل نحو سبع دقائق، فاخترت طاولة قصية،وأخذت أقلّب صفحات الرواية كي أهتدي إلى جملة مفيدة في الإهداء الذي سوف أكتبه لها، وهو على أية حال مجرد شيفرة للإيقاع، واستلهمت من كلمة "جسد" إهداءً معبّراً وضعت فيه كل رسائلي المؤجلة إليها، ثم أشعلت لفافة تبغ نافثاً دخانها عالياً باعتزاز، وأنا أتماهي مع صوت فيروز وهي تغني "معرفتي فيك". حين أطلت من قوس الباب اضطربت دقات قلبي بشكل لا مثيل له، وكدت ألا أتعرف عليها بتسريحتها المثيرة وصدرها المكشوف قليلاً. وقفت لحظة تبحث عني بعينيها، فأشرت لها بيدي من ركني القصي. كنت مرتبكاً أكثر مما توقعت،إذ سرعان ما انهارت كل الخطط التي أعددتها قبل حضورها، لكن كأس البيرة الأولى أسعفتني مجدداً في إعادة التوازن، واعتبرتُ أن الجلسة الأولى تمت بنجاح، خصوصاً أنها طلبت مني مرافقتها إلى ساحة عرنوس قبل أن تستقل تكسي إلى بيتها.

سألتني بغتة بعد خروجنا: ماذا ستفعل في غيابي؟ أجبتها على الفور: سأفكّر بك. ضحكت بجذل وقالت: لا أصدق. قلت وأنا أمسك يدها: الزمن سيكشف لك ذلك، محاولاً التفلسف قليلاً باستشهادات شعرية من "سرير الغريبة" لمحمود درويش قبل أن نصل إلى الساحة. أشارت إلى تكسي فجأة واتجهت نحوها، قلت لها: ماذا حدث؟ أجابت: أشعر بصداع ربما بسبب البيرة.. ثم فتحت الباب وصعدت، فأغلقتُ الباب وراءها، وأنا أجرجر أذيال الخيبة كما لو كنت خارجاً للتو من تحت ظلال زيزفون المنفلوطي.

www.ibtesama.com

تسكعتُ في الشوارع قليلاً ثم عدت إلى البيت نازلاً للمرة الألف الدرجات التسع، نحو قبوي المظلم.

عندما فتحت الباب اتجهت فوراً إلى التواليت لإفراغ مثانتي التي امتلأت فجأة وأنا أسترجع السيناريو الفاشل الذي أعددته للإيقاع بها وجرها من أنفها إلى بيتي لتختار ما تشاء من الروايات. وفي ذهني تصور وحيد: أن نكتب رواية لم يكتبها أحد على ملاءة مطرزة بالورود.

وكي أداري خيبتي عدت للتفكير بمصير روايتي مجدداً وأنا عائد إلى محطة القطار بقناعة مفادها أنه ليس لدي الوقت الذي كان يهدره إميل زولا أو بلزاك أو تولستوي في الوصف،فكل ما أحتاجه نصف صفحة عن تاريخ المحطة، وربما طقوس موكب الحج قبل أن يخترعوا هذه الآلة الحديدية الجبارة. إذا ما الفائدة من وصف قطار يسير بواسطة الفحم في زمن القطارات الكهربائية.

لكن تحقيقاً قرأته في إحدى المجلات المصورة عن تاريخ قطار الخط الحجازي أغراني بتسجيل بعض الملاحظات الحيوية. فقد كانت دمشق مركزاً للانطلاق نحو الدّيار المقدسة. إذ يجتمع موكب الحج من الأصقاع الإسلامية كافة، لتبدأ رحلة مكابدات طويلة تصل إلى خمسين يوماً في الذهاب ومثلها في الإياب. عدا الأخطار التي يواجهها الموكب على طريق القوافل من فيضانات وسيول في الشتاء وشمس حارقة في الصيف. إضافة إلى أخطار قطاع الطرق. وكان على والي دمشق الذي يُعيّن أميراً للحج من قبل السلطان العثماني تأمين سلامة الموكب ومرافقته طول المسافة التي تتجاوز الـ١٥٠٠ كيلو متر (كدت أقول فرسخاً)، ونحو ٤٩٠ ساعة مسير مقسّمة إلى ٤٠ مرحلة. ويحرس الموكب عشرة آلاف جندي من المشاة والفرسان والهجانة. وحسب المصادر التاريخية فإن طول الموكب يصل إلى نحو أربعة كيلومترات في بعض المواسم.

وتعود فكرة إنشاء خط حديدي، يربط بين الولايات العربية إلى العام ١٨٦٤ إبّان العمل في فتح قناة السويس، حين تقدم الدكتور زاميل وهو مهندس

www.ibtesama.com

أميركي من أصل ألماني باقتراح تمديد خط حديدي يربط بين دمشق والبحر الأحمر. ولم يتشجع الباب العالي في الأستانة لتنفيذ الفكرة حتى العام ١٩٠٠. ففي مطلع نيسان من هذا العام أعلن السلطان عبد الحميد عن مشروع الخط الحديدي الحجازي معتبراً إياه مشروعاً دينياً خيرياً. وافتتح التبرعات بنفسه ليسجّل أول مبلغ لصندوق المشروع وقدره ٣٢٠ ألف ليرة ذهبية. وتبّرع شاه إيران بمبلغ ٥٠ ألف ليرة ذهبية. وتبّرع خديوي مصر بكميات هائلة من الأخشاب ومواد البناء. وخلال أشهر معدودة. تمّ جمع مبلغ ثمانية ملايين ونصف المليون ليرة ذهبية بما يكفي ويزيد لتنفيذ الخط مباشرة. واستمرت أعمال الإنشاء سبع سنوات متواصلة في ظروف قاسية وشاقة. انتهت بافتتاح رسمي أقيم في الأول من أيلول من عام ١٩٠٨ الذي كان يصادف عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني. وكان ذلك بحضور ثلاثين ألف مدعو وعدد لا بأس به من الصحافيين الأجانب لتغطية هذا الحدث العظيم. وبعد سنة واحدة تم خلع السلطان عبد الحميد. ثم قامت الحرب العالمية الأولى. فاستخدمت الدولة العثمانية الخط في تنقلات جيوشها. وحين قامت الثورة العربية الكبرى للخلاص من الاحتلال العثماني. وجد لورنس العرب في ذلك فرصة سانحة لتخريب الخط الحديدي وضرب هذا الهدف الاستراتيجي.

ولم يكن هدف الكولونيل الإنكليزي الشهير عسكرياً بحتاً. بل أراد قطع الاتصال نهائياً بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى. تمكنت الحكومة العربية في دمشق من إصلاح الخط ووصل الأمير علي بن الحسين في أول رحلة من المدينة المنورة إلى دمشق لزيارة شقيقه الملك فيصل في العام ١٩١٩. ولاحقاً تمكّنت العصابات اليهودية في فلسطين من نسف الجسر الحديدي بين الحمة وسمخ. وهذا ما أدى إلى انقطاع الاتصال بين سورية وفلسطين في العام١٩٤٦.

www.ibtesama.com

ولدى تمحيص هذه المعلومات والتواريخ، وقعتُ في مشكلة عويصة. فكيف سوف يلتقي عبد الرحمن النشواتي - وهذا اسم الشاب الدمشقي المغامر - مع امرأة تركية بعد نهاية الاحتلال العثماني لفلسطين، إذ ماذا ستفعله امرأة تركية في القدس ولم يعد الوالي التركي موجوداً في الأساس. فما بالك بموظف صغير. وبالمقابل ماذا سيفعل عبد الرحمن النشواتي في هذه المنطقة الملتهبة أثناء الحرب العالمية وبعدها إلا إذا كان يريد الالتحاق بجيش الحسين بن علي أو إيصال رسالة سرية من دمشق. وإذا أراد الذهاب بعد هذا التاريخ ينبغي أن يلتقي بامرأة انكليزية. وسأجد صعوبة في إقناع القارئ في تخيل ليلة ماجنة مع إنكليزية باردة. وهكذا طويت الفكرة هروباً من الدخول اضطرارياً إلى أجواء الحرب التي أمقتها. فكل ما أبغيه هو "الإمتاع والمؤانسة" على طريقة جدي الأول أبي حيان التوحيدي، رغم تأكدي التام أن طموحي أكبر من إمكاناتي الروائية. فالملل إحدى عاداتي المفضلة. وحماستي في إتمام هذه الرواية ربما ستنتهي بعد أيام إلى مجرد ذكرى حزينة مثل كل قصص الحب التي خضتها ومثل كل المهن التي عملت بها. فأثناء دراستي الجامعية عملت بعقد مؤقت في إحدى الصحف البائسة بصفة محرر ثقافي،وكان عليّ أن أخترع الموضوعات المناسبة لصحيفة تهتم أساساً بالزراعة والثروة الحيوانية. ولما كان رئيس التحرير معجباً بأسلوبي الأدبي كان يكلفني أحياناً بمهمات ميدانية في الريف للاطمئنان عن كثب على أوضاع الجمعيات الفلاحية ومزارع الأبقار والكميات المقدّرة لموسم القمح القادم والطرق الناجعة لتطوير زراعة البطاطا، وكساد البندورة في معامل الكونسروة.

وكنت كل ما أفعله أن أغوص في غرفة الأرشيف لعدة ساعات، وانتحل موضوعات سبق وتم نشرها في الأعوام السابقة. وأقوم بتبييضها من جديد كمن يتجرع زيت الخروع بإضافة بعض التوابل والبلاغة اللغوية ومزجها برومنتيكية جوفاء في وصف الريف. وهو ما يخلب لبّ رئيس التحرير ويثير

www.ibtesama.com

حسد زملائي في الصحيفة. ثم أختفي أسبوعاً وأعود لأقبض المهمة والاحتفال بثمنها الزهيد في مطعم القنديل، حيث توجد جمعية لا يستهان بعدد أعضائها من المنتحلين السريين والعلنيين، وبعضهم حقق شهرة لا بأس بها في الأوساط الأدبية قبل أن تداهمهم الفضيحة بمانشيتات ساخنة في الصفحات الأدبية من قبل محررين مغمورين أو قراء يعيشون في الأقاليم وليس لديهم من عمل سوى اكتشاف مثل هذه الفضائح للانتقام من أدباء العاصمة.

والانتحال ليس عملية سهلة كما يعتقد بعض الهواة. إنه أصعب بمرات من تحضير عينة من البراز في زجاجة صغيرة ونظيفة ومراجعة مختبر للتحاليل الطبية وانتظار نتيجة الفحص.

وكان برناردو أتشاغا . وهو روائي من إقليم الباسك . قد وضع منهجاً متكاملاً للانتحال بخمس قواعد صارمة أعتقد أن أكثرها فائدة القاعدة الثانية: "ليس على المنتحل أن يلجأ إلى استخدام الحيل لكي يتوصل إلى هدفه بمهارة، يجب ألا يتوجه بخطاه نحو الأحياء البعيدة أو الأزقة المعتمة كما لو أنه نشال صغير، بل عليه أن يمضي في وضح النهار في الأماكن الفسيحة في مركز العاصمة، عليه أن يتوجه إلى بوليفار بلزاك أو إلى حدائق هاردي أو إلى شارع هوفمان أو إلى ساحة بيراندييللو.. وهذا يعني بكلمات أخرى أنّ عليه أن يختار نماذجه من بين أعمال المؤلفين الذين تدور أسماؤهم على كل لسان في العالم بأسره، وعليه ألا يقلق من ذلك، فلن يكتشفه أحد على الإطلاق،لأن الكلاسيكيين . مثلهم مثل رؤساء الملائكة . غير معروفين إلا بأسمائهم وأيقوناتهم.

وكي لا يتحفز عديمو الموهبة بالتقاط أول رواية في طريقهم واعتبارها كعصا الأعمى، عليهم الحذر من "ضربة سوء الطالع". إذ ربما يكتشف أمرهم بسهولة خصوصاً في أجواء تشبه أجواءنا "مليئة بالمكائد والخبث والعداء". ومن الممكن أن يحدث العكس تماماً فيخرج المنتحل من "شباك خصومه وقد ازداد

www.ibtesama.com

صلابة". ولدي قائمة طويلة بأسماء منتحلين أصبحوا من مشاهير الروائيين والشعراء دون أن يرمش لهم جفن، وهم يوقّعون كتبهم الجديدة في معارض الكتب أو على العقود القانونية لترجمة أعمالهم إلى لغات أخرى مطمئنين إلى أن المترجمين الأجانب أكثر جهلاً من بعض أصحاب دور النشر المحلية ومأخوذون بسحر الشرق وغرائبيته لدى مؤلفي هذه الروايات أو بعبارة أدق "منتحليها". فلا يكفي أن تلجأ إلى الوثائق التاريخية كي تصنع رواية في الوقت الذي تنام فيه المخيلة تحت سبع طبقات من الأرض الرطبة مثل خفاش لزج. وها هو أجمل منتحل في العالم يطرق بابي بعنف، وكنت أتوقع أن يداهمني ماريو خمينث في أية لحظة ويفرض حضوره بقوة على مخيلتي، إذ طالما أجَّلْتُ هذه اللحظة الاستثنائية، منذ أن بدأت التحضيرات الأولية لروايتي خوفاً ألا أمنحه التحية التي يستحق بجدارة، فساعي بريد نيرودا الشخصي كائن خرافي لا مثيل له، اخترعته مخيلة أنطونيو سكارميتا ليهديني وملايين القراء الآخرين كما أجزم واحدة من الروايات التي لا تنسى، مثل أول قبلة مسروقة، أو لقاح الجدري، أو الوشم الذي يميز أبناء القبائل البدائية بعضها عن بعض.

وكان من دخل متسللاً من فتحة الباب ليس ماريو خمينث بالضبط، بل ماسيمو ترويسي الذي لعب دور ماريو بفيلم أخرجه ميشيل رادفورد عام ١٩٩٤، لا يقل سحراً عن الرواية بكل شحوبه واصطكاك أسنانه، وهو يحمل حقيبة ساعي البريد والنسخة التي أهداها إياه بابلو نيرودا من أحد دواوينه الأخيرة، وبعض الأوراق التي انتحلها من قصائد نيرودا لإغواء نادلة الحانة "بياتريث غونثالث" وأطلق عليه اسم "مجازات". لمدة ثوانٍ استعدت شريطاً كاملاً من أحداث الرواية، وكنت أود لو أسجل الصفحات المئة والثلاث والثلاثين كاملة لولا أنني سأتهم بأكبر عملية انتحال أدبية أرتكبها مؤلف مجهول، ورغم ذلك لم أتمكن من المقاومة أمام سطوة هذه المقاطع التي تدور بين بياتريث وأمها:

www.ibtesama.com

"وجدتها في الغرفة معرّضة للريح الخريفية تتابع بنظراتها انزلاق القمر المكتمل تحيط به العتمة المبهمة فوق الفراش, وأنفاسها مضطربة. سألتها:

- ماذا تفعلين؟

- إنني أفكر.

وبضربة من يدها ضغطت مفتاح النور. فباغت الضوء وجه الفتاة المتهرب.

- إذا كنت تفكرين فإنني أريد أن أرى كيف يصبح وجهك عند التفكير.

غطت بياتريث عينيها بكفيها. وأضافت الأم قائلة:

- وتتركين النافذة مفتوحة ونحن في عز الخريف؟!

- إنها غرفتي يا أماه.

- ولكنني أنا التي تدفع حسابات الطبيب. فلنتحدث بصراحة يا ابنتي. من يكون؟

- اسمه ماريو.

- وماذا يعمل؟

- ساعي بريد.

- ساعي بريد؟

- أو لم تري حقيبته؟

- طبعاً رأيت الحقيبة ولمن يوصل الرسائل؟

- إلى دون بابلو.

نيرودا؟

- أجل إنهما صديقان.

- أهو من قال لك ذلك؟

- أنا رأيتهما معاً. قبل أيام كانا يتحدثان معاً في الحانة.

- وبماذا كانا يتحدثان؟

- في السياسة.

www.ibtesama.com

ـ آه، إنه شيوعي أيضاً؟

ـ ماما، نيرودا سيصبح رئيس تشيلي.

ـ بنيتي، إذا كنت تخلطين الشعر بالسياسة، فستصبحين عما قريب أماً عزباء. ماذا قال لك؟

كانت الكلمة على طرف لسان بياتريث، ولكنها تبلّتها لبضع ثوانٍ بلعابها الدافئ قبل أن تقول:

ـ مجازات.

تقدمت المرأة إلى جوار الصبية، وتركت نفسها تهوي على السرير ثم قالت بصوت خائر:

ـ لم أسمع منك مطلقاً من قبل كلمة طويلة كهذه. أي "مجازات" قال لك؟

ـ قال لي... قال لي أن ابتسامتي تمتد مثل فراشة على وجهي.

ـ وماذا أيضاً.

ـ حسن، عندما قال هذا ضحكت.

ـ وعندئذٍ؟

ـ عندئذٍ قال شيئاً عن ضحكتي. قال إن ضحكتي وردة، حربة تتشظى، ماء يتفجر، قال إن ضحكتي موجة فضة مباغتة.

رطبت المرأة شفتيها بلسانها المرتعش:

ـ وماذا فعلت عندئذٍ؟

ـ بقيت صامتة.

ـ وهو؟

ـ ماذا قال لي بعد ذلك؟

ـ لا يا بنيتي. ماذا فعل لك بعد ذلك. لأن ساعيك البريدي يملك يدين أيضاً فضلاً عن لسانه.

www.ibtesama.com

ـ لم يلمسني في أية لحظة. قال إنه سعيد باستلقائه إلى جوار شابة طاهرة، وكأنه إلى جوار محيط أبيض.

ـ وأنت؟

ـ أنا بقيت صامتة أفكر.

ـ وهو؟

ـ قال لي إنني أروق له حين أصمت لأنني أبدو كالغائبة.

ـ وأنت؟

ـ أنا نظرت إليه.

ـ وهو؟

ـ وهو نظر إليّ أيضاً. وبعد ذلك توقف عن النظر إلى عيني وراح ينظر طويلاً إلى شعري. وعندئذ قال لي:

"يلزمني وقت طويل لأحتفل بشعرك، يجب أن أعده وأتغزل به شعرة شعرة".

نهضت الأم واقفة، وقاطعت راحتي يديها أمام صدرها بوضع أفقي مثل شفرتي متصلة:

ـ لا تخبريني بالمزيد يا بنيتي. إننا أمام حالة خطيرة جداً. كل الرجال الذي يلمسون بالكلمة أولاً يصلون فيما بعد إلى اللمس بعيداً بأيديهم.

فقالت بياتريث وهي تحتضن الوسادة:

ـ وماذا في الكلمات من سوء؟

ـ ليس هناك مخدر أسوأ من الكلام. إنه يجعل نادلة حانة ريفية تشعر وكأنها امرأة فينيسية. وبعد ذلك حين تأتي ساعة الحقيقة لحظة العودة إلى الواقع تكتشفين أن الكلمات لم تكن إلا شيكاً دون رصيد. إنني أفضّلُ ألف مرة أن يلمس سكير مؤخرتك في البار على أن يقال لك أن ابتسامتك تطير عالياً مثل فراشة. "بنيتي: الأنهار تجرف أحجاراً والكلمات تؤدي إلى الحبل. أعدي حقيبتك". "هذا مضحك! هل عليّ أن أذهب إلى سنتياغو لأن رجلاً قال لي إن

www.ibtesama.com

ابتسامتي تخفق في وجهي مثل فراشة؟!". "لا تكوني غبية! الآن ابتسامتك فراشة، ولكن غداً سيكون نهداك حمامتين تريدان من يهدل لهما، وستكون حلمتاك حبتي توت بري مترعتين بالرحيق، وسيكون لسانك سجادة الآلهة الدافئة، وستكون مؤخرتك شراع سفينة، والشيء الذي ينفث رطوبة بين ساقيك الآن، سيكون فرن الكهرمان الذي يصاغ فيه معدن السلالة المنتصب! طابت ليلتك".

وفي مكان آخر كانت تدور مساجلة من نوع آخر، بين نيرودا وماريو لمواجهة الوضع الصعب الذي تعاني منه بياتريث بعد أن حبستها والدتها في غرفتها.

". لا يمكنك أن تتخلى عني يا بابلو. تحدث مع السيدة واطلب منها أن تتخلى عن جنونها.

ـ يا بني، أنا لست إلا شاعراً وحسب. لست ممن يتقنون فن انتزاع أحشاء الحموات الرائع.

ـ يجب عليك أن تساعدني لأنك أنت نفسك كتبت: "لا أحب البيت دون سقف، ولا النافذة دون زجاج. لا أحب النهار دون عمل ولا الليل دون حلم، لا أحب الرجل دون امرأة ولا المرأة دون رجل. أريد للحيوات أن تندمج مشعلة القبلات التي بقيت منطفئة حتى الآن. إنني شاعر الزواج الطيب".

أعتقد أنك لن تقولي لي الآن إن هذه القصيدة هي مجرد شيك بلا رصيد".

وحين قابل نيرودا والدة بياتريث واجهته بجملة حقائق دامغة تدين ماريو: "جعل ابنتي بتلك المجازات يا دون بابلو أشد سخونة من حمّام حار!. والأخطر من كل ذلك هو أن المجازات التي يغوي بها ابنتي ينقلها بكل وقاحة عن كتبك". "إنني أستحلفك بكل ما تستلهمه وتثق فيه أن تأمر هذا المدعو ماريو خيمينث، ساعي البريد ومنتحل الأشعار، أن يمتنع منذ اليوم ومدى الحياة عن رؤية ابنتي".

لكن ماريو بكل يأسه كانت عدالة السماء ترافقه، حين تسللت بياتريث ذات ليلة إلى مستودع البار، حيث كان يجلس بين شباك الصيد المختلطة،

www.ibtesama.com

يسترجع مجازاته لتتحول في لحظة أبدية إلى مجازات حقيقية ملموسة ونارية مثل شفتي بياتريث وهما تحتضنان البيضة البلاستيكية التي أهداها إياها ماريو ذات يوم. وهكذا في هذه اللحظة بالذات "أطلقت بياتريث صرخة مشوبة باللهاث، بالنحيب، بالإسراف، بالاختناق، بالموسيقى، بالحمى، امتدت لبضع ثوان ارتج في أثنائها جسدها كله حتى التلاشي. تركت نفسها تنزلق على الأرضية الخشبية، وبعد أن وضعت إصبعاً فوق الشفة التي لحستها، سحبت الإصبع المبلل إلى قماش بنطاله الغليظ، مداعبة تلك القمة النافرة، وقالت له بصوت أبح:

- لقد جعلتني أنتهي أيها الأحمق.

وكما في قصص الحب العاصفة، انتهى ماريو في مطبخ الحانة يقطّع البصل للصيادين السكارى، أما بياتريث التي مثل فراشة، فقد كانت مشغولة إلى أذنيها بالاعتناء بثمرة حبهما، بابلو نيفتالي الذي كان مصاباً بأمراض لا تحصى حسب تقرير طبيب المشفى الذي كان يعالجه باستمرار.

قبل هذا التاريخ بثماني سنوات تقريباً، كان ماركيز قد أنهى تحفته الشهيرة "الحب في زمن الكوليرا". وكان بطلها ساعي بريد أيضاً، لكن معاناته في الحب كانت أشد فتكاً مما عاناه ماريو. فبينما كان فلورينيتو ارثيا عائداً إلى مركز التلغراف بعد أن سلّم برقية مستعجلة، لمح من نافذة البيت الذي كان يغادره، صبية رفعت نظرها لترى من الذي يمر عبر النافذة، وكانت هذه النظرة العابرة "أصل كارثة حب لم تنتهِ بعد مرور نصف قرن من الزمان. ورغم اختلاف العاشقين إلا أنهما يحملان مزايا البلاهة ذاتها بفارق أن ماريو تمكن بمجازاته المنتحلة أن يصل إلى قلب حبيبته خلال أشهر، أما فلورينيتو فقد حمل لواعجه في صدره إلى لحظة موت زوج فيرمينا داثا، وهو اسم الصبية التي عشقها بصمت، وها هو بعد انتهاء مراسم الدفن ينبثق أمام هذه المرأة المتشحة بالسواد حزناً على زوجها الفقيد ليقول بكل رباطة جأش" :فيرمينا.. لقد انتظرت هذه الفرصة لأكثر من نصف قرن لأكرر لك مرة أخرى قسم وفائي الأبدي وحبي

www.ibtesama.com

الدائم" ولم يكن موظف التلغراف البائس، قد "توقف للحظة واحدة عن التفكير بها، منذ أن رفضته بلا استئناف إثر غراميات طويلة متناقضة، وقد انقضت منذ ذلك الحين إحدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام". ومثل زلزال مفاجئ وجد نفسه أخيراً على سفينة نهرية تمخر عباب الماء بقوة الحطب، وقوة الحب الذي لا يزال يحمله فلورينتينو إرثيا بين أضلاعه الرقيقة تجاه فيرمينا، وكأنهما في انعشرين وقد استطاع بعد تدريب متواصل لمدة نصف يوم أن يعزف لها على الكمان فالس الربة المتوجة، فارضاً أوامره على قبطان السفينة بالإبحار مدى الحياة مؤجّلاً هذه العبارة "ثلاثة وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها".

المجازات التي استعارها ماركيز من قصة حب حقيقية بين والديه ـ كما اعترف لاحقاً في مقابلة صحفية معه ـ لم تكن أكثر من هيكلية بسيطة لبناء هذه العمارة الشاهقة من التنهدات والانتظارات والرسائل المحمومة، فهي الآجر الذي يسند جدران الرواية كي لا تنهار فوق رؤوس المارين عند هبوب أول عاصفة، هذا ما قلته لنفسي وأنا أغوص في متاهة الملاحظات التي تجمعت في أوراقي المتناثرة، والمكتوبة على عجل خوفاً من ضياعها، لدرجة أنني كنت أكتب أحياناً ملاحظات فوق الحائط في عتمة النوم، وأقفز كالملسوع متلمساً القلم الذي أضعه إلى جانب السرير خصيصاً لمواجهة هكذا كمائن مباغتة.

وفي طرف إحدى الأوراق وجدت ملاحظة بقلم رصاص: "نزار قباني"! وعلى الفور استعدت الحالة التي جعلتني أتذكّر نزار قباني دون غيره، فأثناء انشغالي بفكرة "الانتحال" كانت تدور في رأسي فكرة مشوشة عن مئات العشاق الذين اختزلوا المسافة بينهم وبين شبابيك حبيباتهم بقصائد منتحلة من نزار قباني تحديداً، إلى درجة أن بعض هذه الرسائل المتبادلة أفضت إلى أطفال حقيقيين، يتغوطون طوال الليل في الفراش ذاته الذي شهد سكرات الحب الأولى، ونشيج العذراوات وهن يشهدن بأم أعينهن أن قصيدة "جسمك خارطتي" أو "خربشات

www.ibtesama.com

طفولية" و "طفولة نهد" وحتى "لو كان حبيبي شجراً". ليست مجرد مجازات وحالات هيام وراء ستائر النوافذ، بل هي حقيقة مؤكدة وعملية جراحية بدون بنج، حيث تتحول غابة الدانتيلا الرقيقة في مفترق الفخذين إلى بركة دم، تسبح فيها آلاف الحيوانات اللامرئية، دون وثيقة نكاح رسمية في معظم الحالات.

وفي غمرة هياجي الروائي، اقتنعت بفكرة إعادة قراءة أشعار نزار قباني التي اختتمتها منذ ربع قرن على الأقل دون نجاحات تذكر في خوض مغامرات غرامية معتبرة، واكتفيت بكتابة قصائد بائسة على دفتر مدرسي، واعتبرتها مخطوطي الشعري الأول، وقد ضاع هذا المخطوط، دون أن أجد من أكاتبها، كي تشاركني نار الهوى ولواعج الحب الملتهب، لأن جميع من كنت أعرفهن آنذاك كن لا يُجدن القراءة و الكتابة، ولم يسمعن باسم نزار قباني في الأصل، وربما كانت حصافة كبيرة من أمي، في استعمال أوراق هذا الدفتر الحزين لإذكاء النار تحت قدور الحنطة كي تسلق جيداً وتتحول إلى وجبات برغل دسمة في ليالي الشتاء الباردة.

لم أجد في مكتبتي ديواناً واحداً لنزار قباني، وتذكرت أني أهديتها إلى أحد الذين أصيبوا بلعنة الحب المتأخر، ولم يكن أمامي لاستعادة روح هذا الشاعر إلا أن أرتدي معطفاً ثقيلاً وأتجه إلى الشارع الذي أطلق اسمه عليه في حي "أبو رمانة" بعد وفاته مباشرة ليكون قبلة العشاق، وأتنسم بعض الإلهام وحيداً وسط عاصفة من الهواء الثلجي، بعد اعتذار لمياء عن مرافقتي واستغرابها مثل هذا الطلب على الهاتف، وفي مثل هذا الوقت المتأخر من المساء، وكي تخفف من صدى خيبتي أطلقت نوبة من السعال للتأكيد على أنها ممددة في السرير وتعاني من أنفلونزا حادة منذ يومين وإلى جانبها دزينة من المضادات الحيوية.

بعد نصف ساعة من التسكع في شارع نزار قباني ذهاباً وإياباً، لم ألمح عاشقاً واحداً غيري، إلى درجة أن أثرت انتباه جنود الحراسة أمام بوابة إحدى

www.ibtesama.com

السفارات الأجنبية إضافة إلى دورية راجلة انزرعت فجأة أمامي، وسألني قائد الدورية: "هل تبحث عن شيء أضعته في هذا الشارع؟" أجبته بارتباك: لا أبداً.

- إذن ماذا تفعل هنا؟

- لا شيء. إنني أنتظر سيارة أجرة.

- بطاقتك الشخصية.

أخرجت بطاقتي بارتباك. تمعّن بها جيداً، ثم رمقني بنظرة ذات معنىً وقال:

- سيارات الأجرة لا تمر من هنا.

انسحبت مسرعاً حتى لا أثير شكوكاً إضافية ودخلت في أول زقاق جانبي كي لا تخترقني نظراتهم التي أعتقد أنها كانت مصوّبة نحوي، دون أن أجرؤ على الالتفات إلى الخلف. وقد تحولت باقة الياسمين التي قطفتها من سور إحدى البنايات في الشارع إلى حطام في راحة يدي المتعرّقة.

وكدت ألعن الساعة التي قررت فيها إدخال سيرة شاعر الحب في فصول روايتي، دون أن أتخلى عن زيارة ضريحه في مقبرة باب الصغير في حي الشاغور وتسجيل ما كتب على شاهدة قبره في الأيام المقبلة كنوع من التوثيق الضروري، فهو أول شاعر معاصر يتعرّض لمحنة التكفير إلى درجة أن امتنع إمام المسجد في لندن من الصلاة على جثمانه قبل أن تحط به الطائرة في مطار دمشق.

تلك الليلة لم أنم جيداً، وقد انتابني خوف مفاجئ من أن أكون مراقباً، وكاد أن يغمى عليّ حين سمعت جرس الباب يرنّ بإصرار وبشكل متواصل، واعتقدت لثوانٍ أنني وقعت في المصيدة دون أن يكتشف أحد من الأصدقاء شيئاً عن مصيري التراجيدي. تقدمت نحو الباب على أطراف أصابعي، ونظرت من العين الساحرة بأصابع مرتجفة، وبدا لي شبح شخص لم أتعرف عليه في عتمة المنور، لم يكن شبح والد هاملت بالتأكيد، ولا حتى شبح متعب الهذال في "مدن الملح"، فازددت رعباً، وأنا أهيئ في الآن ذاته مرافعة تثبت براءتي من أي تهمة تمس بأمن البلاد. فتحت الباب أخيراً لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام أحد أصدقاء

www.ibtesama.com

الطفولة يحمله الشوق لرؤيتي بعد غياب. فأحسست ببعض الاطمئنان وأنا أدعوه للدخول. قال مبادراً: جئت أدعوك لنسهر معاً. سيارة المعلم تحت تصرفي. اعتذرت منه بسبب مشاغلي. فاحتسى شايه وانصرف خائباً من برودة استقبالي له. عدت إلى سريري كمن أصابته الحمى. وأنا أرتجف تحت الغطاء الثقيل. مثل راسيلنكوف لحظة انتهائه من قتل المرابية العجوز في "الجريمة والعقاب". ودخلت في حالة يرثى لها مسترجعاً تاريخي السياسي بأكمله. فوجدته ناصعاً تقريباً عدا نقطة سوداء واحدة. أدركت أنها ستقودني إلى التهلكة حتماً.

ففي صيف عام ١٩٨٢ ـ بعدغزو الدبابات الإسرائيلية شوارع بيروت ـ كانت المشاعر متأججة إلى أقصى حد ـ وكنا كشباب جامعي متحمّس ـ نتذوق لأول مرة بكل هذا الوضوح مرارة الهزيمة والعار. فنحن لم نعش كما يجب الهزائم القديمة. وها هي هزيمة حقيقية تمتثل أمامنا بكل عريها. ولم يكن أمامنا لمواجهتها سوى الاحتجاج العلني والصامت. ومتابعة نشرات الأخبار والصحف والاستماع إلى أغاني مارسيل خليفة في سهرات جماعية صاخبة تنتهي بحطام أشكال بشرية. تنضح منها رائحة الخمور والتبغ والجنس. وربما كان حظي العاثر وحده السبب في أن ألتقي بعد أربع سنوات في منتصف شارع الصالحية سناء حسن أحد أعضاء الشلل القديمة. وكنت خارجاً للتو من حفلة الظهيرة في سينما الكندي. عانقتني بشوق وهي تفتح ذراعيها على اتساعهما من الدهشة. وأمطرتني بأسئلتها عن أحوالي. وكانت انتقلت إلى مدينة اللاذقية بعد تخرجها من كلية الفنون الجميلة. ولم أعد أعلم شيئاً عن أخبارها. دعوتها أن تذهب معي إلى البيت فوافقت بشرط أن نخرج معاً في المساء إلى سهرة تضم بعض الأصدقاء القدامى المشتركين لاستعادة "أندلس الأمس" حسب تعبيرها.

وفي السرير. استعدت رائحتها القديمة التي تشبه القرفة. وأطياف الليالي الصاخبة. وذكّرتني هي بتفاصيل كنت نسيتها. أو بالأحرى حاولت نسيانها. وقبل أن ننهض من قيلولة مضطربة. أدارت وجهها نحوي ونظرت إلي بتحد:

www.ibtesama.com

- لماذا الم تتزوجني وقتها يا حيوان؟

لكنني لم أجبها، متشاغلاً في النظر إلى السقف. نهضت فجأة وارتدت ملابسها على عجل وقالت:

- سأصنع القهوة ثم نذهب.

هززت رأسي موافقاً، وعندما وصلت إلى باب الغرفة التفتت نحوي وقالت:

- تأكد أنني لم أخنك. نجوى ماردیني كانت تريد الإيقاع بيننا. وللأسف نجحت. كانت شرموطة الشلة على أي حال. وانسحبت إلى المطبخ وهي تقول بصوت عال كي أسمعها: سمعت أنها سافرت إلى السويد مع لاجئ سياسي عراقي وكحولي مثلها. ثم أضافت كمن تكلم نفسها:

- الطيور على أشكالها تقع.

السهرة التي ضمتنا في إحدى الغرف المستأجرة في زقاق ضيق في مخيم فلسطين لم تكن متجانسة، ولم أجد نفسي في هذا المكان، كنت صامتاً طول الوقت وأفكر في طريقة للانسحاب، خصوصاً أن التصفيق علا فجأة حين نهض أحدهم وأحضر عوداً وبدأ العزف والغناء بصوت يشبه الهواء محطماً دون شفقة أوزان القصائد التي كان يرددها من أشعار محمود درويش وسميح القاسم وأحمد فؤاد نجم، وحين بدأ بالمقطع الأول من قصيدة "أحنُّ إلى خبز أمي" قاطعت صوته دقات قوية من جرس الباب، فخرج أحدهم مهرولاً، وما أن فتح الباب حتى تلقى صفعة قوية على وجهه من رجل ضخم يرتدي طقماً أسود، فيما انتشر ثلاثة عناصر في المكان، وانتهينا جميعاً في مؤخرة سيارة رانج روفر، ومن ثم أمام طاولة محقق جلف، بعد أن ملأ كل واحد منا على حدة استمارة تستفسر عن أسمائنا وأسماء أمهاتنا وعماتنا وخالاتنا وأزواجهن، ولمحة موجزة عن حياتنا.

بعد قليل رنّ الهاتف في الغرفة الواسعة التي جمعتنا، وبعد أن أغلق الرجل السماعة، سأل بتثاؤب: "مين المغني السياسي ولاه؟" فاصفر وجه المغني وهو

www.ibtesama.com

يقول: أنا. أشار له بإصبعه أن يدخل إلى الغرفة المجاورة. وروى لنا "فيكتور يارا" ونحن خارجون من ذلك البناء الضخم, مع مطلع الفجر, أن المحقق طلب منه أن يسمعه إحدى أغنياته السياسية. وعندما أسمعه الأغنية نظر إليه باحتقار وقال له: "انتلع من وجهي. تضرب إنت ويللي كتب فيك التقرير".

ابتعدتُ بخطوات مسرعة, وسمعت صوت سناء وهي تطلب مني أن أتوقف. وقفت. قالت: أنا آسفة.

ثم قبّلتني وقالت: أنا ذاهبة.

قلت: إلى أين؟

قالت: سأسافر الآن إلى اللاذقية. وابتعدت.

قلت: لحظة. سأوصلك إلى الكراج.

لدى مراجعة المسودات التي أنجزتها بما يشبه الحمى خلال أيام معدودة, استنكرت على الفور حجم الشطط الذي وقعت فيه, وأول ملاحظة التقطتها كالصفعة كانت تتعلق بمهنتي, فأنا في حقيقة الأمر لم أعمل في حياتي كلها أميناً لمكتبة, أو حتى بائعاً في مكتبة, وعلاقتي مع وزارة التربية لا تتجاوز المعرفة الجغرافية السطحية لموقع الوزارة لا أكثر, حيث كان أحد أصدقائي يقطن في ملحق مواجه للوزارة تماماً.

ومما زاد حنقي أكثر كمية الحماقات التي كان ينطق بها بطلي وأنا أتخفى وراءه بدور الراوي, فليس من المعقول إطلاقاً أن تحتوي مكتبة الوزارة على كتب من النوع الذي ذكرته, وبالتأكيد سوف تكون غالبية الكتب الموجودة في هكذا مكتبات, تربوية وتاريخية إضافة إلى الكتب الحديثة مما جادت به قريحة شعراء نظّامين في المناسبات الوطنية, وروايات تحض على الفضيلة موجهة للفتيان والناشئة, وبعض المعاجم والكتب التراثية التي تأتي عادة في مجموعة مجلدات مذهبة. وكنت حصلت على نسخة من كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني منذ سنوات, زينتُ بمجلداتها الأحد عشر رفاً في مكتبتي

www.ibtesama.com

بنوع من التباهي، وقد حاولت مراراً قراءة بعض محتوياتها، لكنني لم أفلح، خصوصاً لكثرة إحالاتها، من نوع: قال فلان أن فلاناً ذكر أن فلاناً عن فلان، الخ...

وهذا ما يصيبني بضيق في التنفس وانتفاخ في الرئتين، وبدلاً من إهدار وقتي بهذه المقدمات، أكون أنهيت قراءة قصة كاملة لتشيخوف أو زكريا تامر.

آنذاك كنت أتقاضى مرتباً غامضاً من مؤسسة للإنتاج الفني مقابل عمل وهمي في مجلة فصلية تدعى "الشاشة الفضية"، وكانت تصدر بمعجزة عدداً واحداً في العام، يحتوي وجبات خفيفة بائتة، ففي الوقت الذي تكون فيه ميريل ستريب وصوفي مارسو وكاترين دونوف، تقفن فوق السجادة الحمراء، أمام عدسات المصورين في مهرجان كان السينمائي، بإمكانك أن تقرأ تحقيقاً مسهباً في العدد الأخير من "الشاشة الفضية" عن مهرجان كان الذي سبقه، تحت عنوان: مهرجان كان (خاص) في أغرب سبق صحفي قرأته في حياتي.

ولأن مكتب المجلة يقع في الطبقة السفلى من بناء المؤسسة كنت ألتقي يومياً مخرجين وممثلين وكتاباً ونقاد سينما وممثلات هاويات، وهناك التقيت لمياء للمرة الأولى، وليس في مكتبة وزارة التربية كما ادعيت في المسودة الأولى.

وقد جاءت لزيارتي بناء على توصية من أحد الأصدقاء لمساعدتها في الحصول على دور في أحد الأفلام التي يجري التحضير لتصويرها، خصوصاً أن مخرج الفيلم من أعز أصدقائي، وهكذا أقنعته بعد أن شاهدها في مكتبي أن تخضع لـ"تيست" وهميٍّ وبدوري أقنعتها في زياراتها اللاحقة، أن المنافسة على دور البطولة تكاد تنحصر بينها وبين سمر سامي، الأمر الذي أفضى إلى جلسات حميمة كانت تبدأ بمناقشة دورها في السيناريو، وتنتهي بمراوغة مني إلى سيناريو آخر بعد اعتراف تراجيدي بأنها صاحبة أجمل شفتين في الكون، ثم صاحبة أجمل صدر في سورية، وبدا الطريق إلى الشاشة الفضية معبّداً بالحرير مثل اوتستراد دولي يخلو من أية حفريات مفاجئة، لولا أن مؤامرة حيكت ضدنا

www.ibtesama.com

في نهاية الأمر. هكذا أقنعتها بحزن. مما أضاع فرصة اكتشاف نجمة حقيقية. كما كنت أقول لها بابتهال وأسىٍ وهي تفك حمالة صدرها. وأشكر في سري أول من فكر باختراع الدراجات الهوائية لأنها كانت السبب في فقدان عذريتها كما روت لي الحادثة في مطعم اللاتيرنا في اللقاء الثاني بيننا خارج المكتب.

كدتُ ألعن اللحظة التي فكرت فيها. أن أكتب رواية وأنا أرصف دزينة من الأغلاط القاتلة التي انتصبت أمامي مثل شاخصات الشوارع وكلها مكتوبة باللون الأحمر. لتؤكد عبارات من نوع "ممنوع المرور" أو "الأفضلية للمشاة" أو "تمهّل. منعطف. خطر". ولولا تدخل صديقي "غابو" للمرة الثلاثين ربما وفي اللحظة المناسبة لكنت توقفت عند هذا الحد من الهراء والأكاذيب. كانت عبارته تشع مثل البلور في السطر الحادي عشر من الملحق الذي وضعه في ختام "الجنرال في متاهته". ويستعيد فيها ملابسات كتابته لهذه الرواية التي احتاجت منه إلى آلاف الوثائق وكأنها أدوية حياة أو موت دون التخلي عن "قوانين الرواية التي تخرق كل القوانين".

هذه هي. قلت لنفسي بابتهاج لا يقل انفعالاً عن صرخة أرخميدس لحظة اكتشافه قانون الجاذبية. وهو خارج من الحمّام. نعم. ينبغي خرق قوانين الرواية والتنقل براحة بين الأزمنة والشخصيات كما لو كنت في بيت أهلي في الريف. حيث تتجاور بهندسة عجائبية ـ نتيجة ارتجالات ليلية غير صائبة من قبل والدي ـ غرف الضيوف مع غرفة المؤونة. وتلك تفضي إلى المطبخ الذي تطل نوافذه الخلفية على حظيرة الأغنام. وهذه تقود بدورها إلى مستودع الحبوب. ثم غرفة التبن المتاخمة لغرفتي. وأخيراً غرفة النار التي تستعمل شتاء لإعداد خبز الصاج.

وهكذا لم أجد صعوبة تذكر في إيراد خبر نشرته صحيفة محلية منذ أشهر. عن مقتل امرأة شابة من ريف حلب برصاصة من شقيقها لمجرد اكتشافه خلال زيارته لها في بيتها أنها تستمع إلى أغاني أم كلثوم بتوحد وانسجام. معتبراً أن هذا التحول الفجائي في شخصيتها دليل قاطع على تدمير شرف العائلة. وأن

www.ibtesama.com

وراء الأكمة ما وراءها. رغم اعترافات الزوج المفجوع أمام الشرطة أنه هو من أحضر أشرطة أغاني أم كلثوم إلى زوجته كي تسلي وحدتها أثناء غيابه في عمله لفترات طويلة كعامل باطون مياوم في إحدى ورشات البناء في ضواحي المدينة مقابل ثلاثمائة بيزو (عفواً ثلاثمائة ليرة سورية) يومياً. كما كان الشرطي المناوب يسجّل في محضره تفاصيل الواقعة.

الخبر الذي نُشر في أسفل صفحة الحوادث ببضعة سطور فقط لم يثر ضجة كما كنت أتوقع. إذ لأول مرة في التاريخ حسب علمي تحاكم امرأة بالقتل لمجرد سماعها أغاني أم كلثوم. وانتابني إحساس غامض وقتها أن هذه الحادثة يمكن توظيفها بإحكام في بناء رواية تقوم أحداثها على خلفية أغاني أم كلثوم وعصرها. وكتمرينات أولية على الحالة. أحضرت كل أشرطة كوكب الشرق التي بحوزتي. وأخذت أستمع إليها من جديد في محاولة مضنية لاستحضار روح القتيلة. وارتسمت في ذهني صورة عبثية للواقعة: لحظة إطلاق الرصاصة والشهقة الأخيرة للضحية. فيما الشريط يدور بصوت أم كلثوم: "كيف أنسى ذكرياتي وهي أحلام حياتي؟"

ووصل بي الهوس. إلى أن أقوم بجولة يومية محمومة على محلات بيع الأشرطة وشراء أغاني أم كلثوم. وقراءة كل ما يتعلق بسيرتها بما فيها الكتب الشعرية عن أشهر المغنين التي تباع على الأرصفة. وقد أثارت تصرفاتي الجديدة شكوك لمياء التي كانت ترافقني في جولاتي الغامضة على محلات بيع الأشرطة دون أن أصرّح بدقة سبب اهتمامي المفاجئ بأغاني أم كلثوم. وعندما أصرت على معرفة السبب. أجبتها: أود كتابة حلقة دراسية عن أفلام أم كلثوم الغنائية. وعندما لم تعجبها الإجابة. قالت ونحن ندخل محلاً لبيع الأشرطة القديمة في الشعلان: "بالمناسبة لا يليق بك دور العاشق الولهان". التفت نحوها وأنا أنظر إلى عينيها" :رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا. علموني أندم على الماضي وجراحو".

www.ibtesama.com

وفي مقهى قريب كشفت لها أوراقي بأن الرواية التي سوف أكتبها مرشحة لأن تتحول إلى فيلم تلفزيوني بعد أن أعجب أحد المخرجين بالفكرة. وطبعاً كانت البطولة من نصيبها، بعد أن اشترطت عليها الانسحاب من بروفات المسرحية التي كانت تشارك فيها بدور صغير، وأقنعتها إن إمكانياتها أكبر بكثير من مجرد دور ثانوي في عرض للمسرح القومي، فوعدتني بالانسحاب من الدور، ووجدتها فرصة لتحطيم أنف المخرج الذي كان يحوم حولها مثل ثور هائج في الربيع.

طبعاً لم يظهر الفيلم لأنني لم أكمل كتابة الرواية في الأساس بسبب خلاف نشب بيني وبين المخرج الذي أصر على كتابة السيناريو بنفسه، بعد أن قرأ المخططات الأولية للفكرة وأراد تحويلها إلى فيلم ميلودرامي يليق بحياة فريد الأطرش أكثر مما يخص خلفيات الحادثة التي انطلقت منها. وفي لحظة دراماتيكية مؤثرة أهديت نصف كمية الأشرطة إلى لمياء كي تدخل في الحالة كما يجب موصياً إياها الإنصات جيداً للقفلات الموسيقية في أغنية "رق الحبيب" للقصبجي، والمقدمة الموسيقية للملحن محمد عبد الوهاب في أغنية "أنت عمري".

وبقصد تنظيف المدخنة كما يقولون عدت إلى أكوام الكتب التي عزلتها جانباً لغربلتها من جديد، واضعاً في اعتباري كتب الحب في المقام الأول على أن أتفرّغ في المرحلة اللاحقة لكتب الفراق والموت حسب المخطط الذي وضعته لإنجاز روايتي، ومن بين سلالة طويلة من الأجداد الذين سهروا الليالي، وكابدوا العناء في تأليف كتب الحب والعشق واللذة أحسست ثانية بصلة قربى بيني وبين الجاحظ، فكلانا من برج ترابي كما أجزم، فهو لا يرفع العمامة إلا إلى ما هو محسوس، ويواجه بجرأة الوقائع والألفاظ بصراحة وعلانية مسقطاً من قاموسه ما يسمى في علم البلاغة "الكناية" و "التورية"، ويكفي أنه قال: "وبعض من يظهر النسك والتقشف، إذ ذُكر.و.. تقزز وانقبض. وأكثر من تجده كذلك

www.ibtesama.com

فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا التصنع.." وأيضاً: "وإنما وضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة".

(النقاط الموجودة في النص، حذفهما محقق الكتاب لأسباب تتعلق بالكبت الجنسي، والله أعلم).

ويذكر الجاحظ أيضاً عبارة بليغة وهي "التأدب المصطنع"، وهو ما يقوم به اليوم،حفنة من محققي الكتب التراثية والمترجمة تحت عناوين مثل "طبعة مزيدة ومنقحّة" أو "نقلها بتصرّف" وأكثر ما يثير غيظي تلك الحواشي التي يضعونها في أسفل الصفحة من نوع: "نأيت بنفسي أن أنقل مثل هذه العبارات التي تخدش الحياء العام"، وكأن هذا المحقق أو المترجم قد عيّن للتو قاضياً للبصرة، علماً أن معظم مؤلفي هذه الكتب كانوا من طبقة الفقهاء، وليسوا مجرد مدققين لغويين في الصحف ودور النشر والجامعات.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة وثلاث دقائق بعد منتصف الليل حين انتهيت من تصنيف مراجعي، وهذا يعني أنني استهلكت نحو خمس ساعات في المكتبة. نهضت نحو الثلاجة عسى أن أجد ما يؤكل، لكن الرفوف كانت فارغة تماماً، عدا قطعة جبن يابسة، ازدرتها فوراً لتخفيف نسبة الحموضة التي بدأت تطرق باب معدتي.

وفي المطبخ بحثت عن دواء المعدة وابتلعت كبسولة من "المادوبان" وأنا أقول لنفسي مواسياً: متى كان الروائيون يتذكرون وجبات الطعام وهم بأقصى درجات انهماكهم في القبض على لحظة فاصلة قد ترفع من شأن شخصية ما أو تنحدر بها إلى الحضيض، أما بخصوص علبة السجائر التي دخنتها فالأمر ليس مشكلة إطلاقاً، فقد كان ماركيز في شبابه يدخن أربعين لفافة يومياً، وأنا لم أتجاوز الثلاثين لفافة بعد، وتمنيت في سري أن يكون مصاباً بالقرحة المعدية مثلي لتبرير عصبيتي الشديدة وسرعة غضبي ونزقي الدائم.

www.ibtesama.com

وما خفف آلام معدتي تلك الليلة صراحة هو كتاب أوفيد "فن الهوى" فأثناء تصفحي لهذا الكتاب وجدت ما أبتغيه، لأن أناشيد أوفيد التي كتبها سنة ثلاثة وعشرين قبل الميلاد كانت أشبه بالمفاتيح الموسيقية للمعزوفة التي أتهيأ لعزفها مثل مايسترو حاذق: "لا تفوتنّك الحلبة حيث الجياد العريقة تتبارى، وحيث تجد وسط الزحام مكمناً تتطلع منه إلى النسوة الفاتنات. ولا حاجة بك إلى إيماءة رأس أو إشارة كفّ، فأنت في غنىً عن التلميح والمكاتيب. فز إلى جوار فاتنتك فلا حرج عليك. واقترب حتى تصبح ملاصقاً لها قدر طاقتك، وأشكر زحمة الجالسين فوق الدرجات إذا أغلقوا السبل أمامها فلم تجد مفراً من الاستسلام لدفء ملاصقتك. بادر بتلمّس موضوع يجذبها لمحاورتك، وأبدأ بما هو محطّ الاهتمام. سَلْها بشغف مفرط: (سيدتي، أي رهط من الجياد نشهد؟) واستحسن قولتها مهما كانت، وحذار حذار أن تنسى التصفيق بحماس لتمثال فينوس صاحبة الجلالة. لحظة يشرق في الموكب محمولاً فوق أعناق المتبارين، وحين تلمح ذرة غبار تهبط على ثوبها فوق الفخذ فبأنامل ادفعها رفقاً. وإن لم تهبط تلك الذرة فتوهم واحدة هبطت.. وادفعها أيضاً. مباح لك كل ما تتذرّع به لشد انتباهك. ولتسرف في وعودك، فطالما خدعت الوعود النساء. واختر أي إله شئت تشهده على قسمك. فجوبيتر في عليائه يضحك ملء شدقيه على قسم العشاق كذباً. زد إلحاحاً في حزم إن رأيتها معرضة عن غزلك، وسيأتي يوم تحنو بين يديك. باللين يميل لك الغصن المعوجُّ عن الجذع، بينما ينفصم لو أخذته بالقوة. وكذلك يعجزك النهر إذا سبحت ضد التيار. وباللين تروض النمور وأسود نوميديا، ورويداً يتطامن الثور لنير المحراث. وأنا لا أدعوك إلى أن تشحذ أسلحة القنص أو تتسلق جبال ماينالوس أو تحمل على عاتقك شراك الصيد ولا أن تعرّض صدرك لرشق السهام. إذا قاومتك فتاتك فاخضع لرغبتها، فخضوعك سبيل إلى النصر، وافعل ما تطالبك أن تفعله: إذا ذمّت فذُمّ، وإن قرّظت فقرّظ. وإذا كنت المتفوق في الشطرنج فلا تتوان عن ترك عساكرك تستسلم

www.ibtesama.com

لعساكرها فوق الرقعة. بادر واحمل مظلتها عنها، وشقَّ لها طريقاً وسط الزحام، ولا تتردد في وضع تكأة قدميها أسفل طرف محفتها كي تعينها على الهبوط. وقد ينصحك البعض بأن تستخدم أعشاباً لإثارة "طاقاتك" ذلك في رأيي سمٌّ مهلك. أو أن تخلط ببذور القرّاص اللاذعة الفلفل، أو تسكب البابونج الزعفراني في كأس النبيذ المعتّق. ما ترضى الربة فينوس ساكنة سفوح جبل إريكس الظليلة أن ترشف متعتها من هذا المشرب، وخير لك أن تقضم بصل ميجارا الأبيض والجرجير المؤجّج للشبق المقطوف من حديقتك، فلا أخالك تجهل أن السفينة المقوّسة لا تدفعها دوماً نفس الريح".

في صباح اليوم التالي، استيقظت محطماً، حوالي الحادية عشرة على رنين الهاتف، ولم تكن لدي رغبة في رفع السماعة، لكنني استيقظت أخيراً ونهضت بصعوبة وأنا أحس بآلام في عمودي الفقري. كانت أرواح شخصياتي الروائية تملأ المكان، وتشاركني ارتشاف القهوة والسجائر، وبالكاد أزحت طيف مدام بوفاري عن مخدتي، إذ كانت تتمرغ طوال الليل في سريري. وتحت ماء الدوش الساخن كانت كارمن بأصابعها الوحشية تفرك ظهري وتهمس بعبارات فاضحة وقد أدخلت نصف لسانها في أذني إلى درجة أن انزلقت قدمي اليمنى وارتطم رأسي بطرف المغسلة، دون خسائر فادحة. رممت الجرح البسيط في جبيني بماء الكولونيا، وقبل أن أخرج من المنزل تأكدت من وجود بطاقة الاشتراك في المكتبة الوطنية بين أوراقي، وسجّلتُ أسماء ثلاثة مخطوطات قديمة، عسى أن أجدها في أرشيف المكتبة رغم أن المعلومات التي بين يديّ تؤكد أن اثنين منها موجدان في مكتبة أحمد الثالث في تركيا، وهما "منازل الأحباب ومنازه الألباب" لابن فهد الحنبلي، و "روضة العاشق ونزهة الوامق" للكسائي، والمخطوط الثالث موجود بدار الكتب المصرية، باسم "رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب" لابن فلته.

www.ibtesama.com

أثناء بحثي في فهارس المكتبة لم أجد واحداً من هذه المخطوطات عدا بعض الإشارات إليها وردت في كتب أخرى في عصور لاحقة.

وكي لا تذهب جولتي سدىً استعرت كتاب "الزهرة" لابن داود، وآخر بعنوان مثير هو "مصارع العشاق" للسراج، على أمل أن أجد فيهما نصوصاً كاملة "غير منقحة" كالتي بحوزتي.

اتجهت إلى عمق القاعة بحثاً عن مقعد فارغ، إذ كانت القاعة مزدحمة على عكس المكتبة الظاهرية شبه الخالية، وفجأة لمحتُ الفتاة التي كنت التقيتها أكثر من مرة في المكتبة الظاهرية فاندفعت نحوها مستحضراً نصائح أوفيد. سحبت كرسياً فارغاً وجلست ملاصقاً لها، وبادرتها بابتسامة، وفتحت كتاب "الزهرة" وأنا أتطلع إليها بطرف عيني، ثم باعدت ساقيّ بضع سنتمترات باتجاهها فارتطمت بتنورتها، وفي اللحظة ذاتها أدارت وجهها نحوي فقلت لها: "افتقدتك في الأسابيع الماضية لدرجة أنني رأيتك في منامي مرتين على الأقل". شعرت بالارتباك، فنهضت وهي تجمع أوراقها، واتجهت إلى المقهى الملحق بالمكتبة فلحقتُ بها مسرعاً، سلمّتها أوراقي وأنا أقول لها: "ماذا تشربين؟". قالت: "شكراً". أجبتها بإصرار: "سأطلب فنجانين من القهوة".

وانجهت نحو النادل، أوصيته طلبي، وعدت إليها وأنا أقول: "رب صدفة خير من ألف ميعاد". ردت ببرود: "أنت تحرجني". قلت: "لماذا؟". أجابت: "لا أبداً". ثم أضافت: "هل أنت طالب دراسات عليا؟". أجبت: "لا". قالت: "إذاً ماذا تفعل هنا؟". قلت: "أحتاج لبعض المصادر النادرة. و"أنت؟" قالت: "طالبة ماجستير في قسم اللغة العربية وأعد بحثاً عن طرائق السرد في التراث العربي وتأثيرها على الرواية العربية الحديثة". أجبتها: "مكتبتي تحت تصرفك، لدي عشرات المصادر في هذا الاختصاص، وبإمكانك اختزال المسألة بثلاث أو أربع طرق. قالت: "وما هي هذه الطرق؟". أجبت: "زعموا أن" في "كليلة ودمنة" لابن المقفع، و"بلغني أيها الملك السعيد أن" في "ألف ليلة وليلة" و "يحكى أن" في المقامات، و"قال الراوي" في

www.ibtesama.com

السير الشعبية كالسيرة الهلالية وسيرة الأميرة ذات الهمة, وسيرة عنترة. وهناك عشرات الروايات التي تقلد هذه الأساليب.

عند هذا الحد أحسست أنني وقعت واقفاً, فقد كانت تنظر إليّ كالبلهاء, من جهتي استغللت الموقف بأن مددت يدي نحو طرف فمها وكأنني ألتقط نقطة سوداء عالقة ثم قلت برصانة: "هل تجدين صعوبة في إعداد البحث؟". هزت رأسها موافقة, ثم طرحتُ عليها سؤالاً آخر: "من هو الدكتور المشرف على بحثك؟" وقبل أن تكمل اسمه الثلاثي أجبت جازماً: "حيوان". قالت متعجبة: "هل تعرفه؟". قلت: "أقرأ أبحاثه أحياناً في المجلات الأدبية, وليس لديه ما يقوله, إنه مجرد ببغاء في قفص التراث". انفردت أساريرها قليلاً وقالت: "إنه معقّد". فأضفت: "جنسياً". أحست بالخجل من العبارة, فقلت: "هذا حقيقي. ألم يحاول الإيقاع بك مرة؟". هزت رأسها موافقة, ثم نظرت إليّ بإمعان وقالت: "ما هو عملك بالضبط؟" أجبت وأنا أمزمز الرشفة الأخيرة من فنجان قهوتي بكل وقاحة الغجر: "روائي".

ثم نهضت وأنا متأكد هذه المرة أن الزيت في العجين لا يضيع, دفعت الحساب وقلت لها: "إلى اللقاء". وانصرفت متباهياً كالطاووس.

في ساحة الأمويين, انتظرت تكسي أكثر من سبع دقائق دون فائدة.. مشيت عدة خطوات جيئة وذهاباً على الرصيف, وإذا بغادة الكاميليا تتباهى أمامي قرب سور المكتبة, إنها هي, بدت لي أكثر طولاً وجمالاً. بادرتني: "لا تزال هنا؟!". أجبت على الفور: "شممت رائحتك على بعد مئتي متر". أشرقت بضحكة وقالت: "يبدو أنك شاعر أيضاً". سألتها: "ما رأيك أن نمشي قليلاً". نظرت إلى ساعتها وقالت: "لا بأس".

صعدنا باتجاه شارع المهدي بن بركة, وفي أول شارع فرعي من جهة اليسار انعطفنا. قلت لها: لا أحب الشوارع المزدحمة. ثم قطفت لها وردة بلا رائحة من سور أحد المنازل المحاذية وشكلتها في شعرها وأنا أزداد التصاقاً بها.

www.ibtesama.com

وفي نهاية الشارع أمسكت يدها بقصد أن نقطع الطريق إلى الجهة الأخرى. وفي اللحظة التي وضعت قدمها على الرصيف الآخر حاولت أن تفلت يدها من يدي. ضغطت عليها بقوة ثم أفلتها وكنا أصبحنا بمحاذاة "كافتريا طليطلة". قلت لها كأي روائي إيطالي محترف: "ما رأيك بكوب من الكابتشينو؟". أجابت: "شكراً تأخرت". قلت بنبرة أسى: "حسناً. سأوصلك إلى ساحة المالكي. وهناك نفترق".

وقبل أن نصل إلى الساحة كتبت رقم هاتفي على الجريدة التي كانت تلف بها أوراقها. مع عبارة: "لن أنام قبل أن أسمع صوتك".

أوقفت تكسي وفتحت لها الباب الخلفي كي تدخل. ثم أغلقته وانصرفت بعد أن لوحت بيدي لها.

طوال الطريق وأنا أرسم سيناريوهات للاستحواذ عليها بأسرع وقت ممكن. خصوصاً أنها بحاجة إلى مساعدتي في رسالتها الجامعية. وقد انتهى زمن الهوينى كما يقول كونديرا. ثم إنه ليس بيننا أية ذاكرة مشتركة. وبالكاد أعرفها. وإذا لم تلق طحينها في طاحونتي الشريرة فإن الأمر ليس بهذا السوء وغبار العمل خير من زعفران العطلة. لكن من باب الاحتياط انكببت إثر عودتي إلى المنزل على استعادة قراءة كتاب "فن الحب الهندي" متمعناً بالطرق التي اكتشفها الهنود قبل ثلاثة آلاف سنة في ممارسة الحب. وأخذت أتمعن بالصور التوضيحية المرافقة.و هكذا عندما أعجب بطريقة الحصان مثلاً أجد أن طريقة الفيل أفضل وأكثر حناناً. ثم أنتقل إلى طريقة ثالثة ورابعة وخامسة إلى الرقم (٤٥).

وفي أوج انهماكي العرفي في علم التشريح رنّ جرس الباب. أغلقت الكتاب بسرعة واتجهت نحو الباب. كانت لمياء وراء العدسة الساحرة وقد وضعت إصبعها على فتحة العدسة ثم أبعدتها.

www.ibtesama.com

سحبت الرتاج (بالمناسبة لا يوجد رتاج، ولكن العبارة أعجبتني، وهي هنا لضرورات أدبية صرفة)، وفتحت الباب وأنا نصف نائم. دخلت لمياء مبتهجة وهي تحمل بيديها لفافة. وضعتها على الطاولة، ثم عانقتني قائلة: "وقّعتُ عقداً لمسلسل تلفزيوني وقبضت سلفة محترمة".

هززت رأسي قائلاً: "أعلم". قالت بدهشة: "كيف؟".

"استشارني المخرج قبل توقيع العقد معك.. تعلمين نحن أصدقاء ولقد أراد مصالحتي بعد تلك المشكلة. أنت يا آنسة محسوبة عليّ".

فتحت اللفافة وقالت: "أحضرت لك البيتزا التي تحب".

وأنا ألتهم وجبتي كنت في حقيقة الأمر أفكر بتطبيق ما قرأته في كتاب "فن الحب الهندي" على لمياء. وها هي جاءت بقدميها، رغم أننا متفقان منذ أشهر على انتهاء العلاقة بيننا. قالت فجأة: "لو لم يكن مقر الشركة قريباً من هنا لما أتيت بدون موعد".

أجبتها: "بالعكس. أنا مشتاق لك".

حكت لي طبيعة دورها في المسلسل، كان من النوع الرومانسي السقيم الذي عادة ما يكتبه مؤلفو المسلسلات من وراء الطاولة بأكبر قدر ممكن من الإنشاء والشاعرية الجوفاء، فالشخصية لا تغادر النافذة إلا لماماً، وحين يغامر المؤلف بإرسالها إلى حديقة السبكي التي تصور فيها علاقات الحب عادة لمقابلة حبيبها يكتشف الأمر بائع البوشار الذي يقف وراء عربته عند رصيف الحديقة ويقطن في الآن ذاته في الحارة ذاتها، فيخبر أخاها بالفاجعة، وتحدث مواجهة ساخنة بينها وبين أخيها تنتهي بتمردها على الواقع (هكذا كتب المؤلف في وصف مسار الشخصية).

قلت لها: "ممتاز. هذا الدور نقلة حقيقية في تجربتك. على الأقل تتخلصين من دور القطة في مسلسلات الكرتون المدبلجة" ثم أضفت: "ما رأيك بكأس نبيذ في هذه المناسبة؟".

www.ibtesama.com

أجابتني ضاحكة وهي تحمل بقايا الطعام إلى المطبخ: "لا شكراً. أنا في الدورة الشهرية".

بكل هذه الصراحة والوضوح كانت تسير علاقتي بلمياء، بعد فشلنا في الاستمرار معاً، فلكل منا مزاجه المختلف، لكن شغفاً غامضاً كان يمحو كل خطاياها اتجاهي لمجرد أن نلتقي في مكان ما، أو على الهاتف في مكالمات طويلة تستمر نحو الساعتين أحياناً بما يشبه صراع الديّكة، وتنتهي بمصالحة وموعد للقاء غداً والتسكع مثلما كنا نفعل في الأيام الخوالي.

بمجرد ذهابها فكرت ببهيجة، وسأطلق عليها اسم "بهجة الصباح" لضرورات روائية أيضاً، وقررت أن هذه الفاكهة الفاجعة بحاجة إلى سماد وتشذيب كي تنضج، فلم يسبق أن رأيتها مع أحد أو في مكان عام، وواضح أن خندق الفضيلة الذي تتمترس وراءه مجرد وسيلة دفاعية واهية لأن رائحة البارود لم تقترب منه قط.

سحبت من المكتبة ثلاثة كتب نقدية تتعلق بنظرية الرواية عند العرب وتقنيات السرد وفن المقامات كمفاجأة أولى لها، ثم توقفت ملياً أمام صف طويل من الروايات، روايات الحب تحديداً كي أهديها واحدة منها، واحدة تترك أثراً لا يمحى في ذاكرتها.

وقعت في حيرة فعلاً. وانتهيت إلى خيارين: "قصة حب مجوسية" لعبد الرحمن منيف و "سمرقند" لأمين معلوف، فهما مناسبتان لقارئة غير محترفة كما فهمت من ردود أفعالها تجاه أسئلتي لها عن الرواية خلال مشوارنا الأول. قلت: "سمرقند" أنسب فهي مزيج من التاريخ والفلسفة والحب، ثم إن الإيحاء الذي يتركه العنوان أقل وطأة من عنوان الرواية الأولى وهكذا نبشت المقاطع الموحية في الكتاب، ووضعت تحتها خطاً عريضاً بقلمي الفوسفوري بوصفها المقاطع التي أثارت إعجابي أثناء قراءتي للرواية، وأبرزها هذا المقطع الموجود في الصفحة (٢٧٦).

www.ibtesama.com

"فيمَ تفكّر؟

وانفجر الجواب من شفتيّ:

ـ فيك ـ من القسطنطينية إلى تبريز.

وطافت بوجهها ابتسامة ربما كانت مرتبكة، غير أنها لم تشأ بالتأكيد أن تكون حاجزاً. ولم أجد أنا ما أفعله أخيراً من ترداد صيغتها التي كانت قد غدت بيننا شبه رمز للعرفان.

ـ من يدري؟.. قد يتقاطع طريقانا!

وشغلتنا هنيهات من الذكريات الخرساء. ثم قالت شيرين:

ـ لم أغادر طهران من غير أن أصطحب الكتاب.

ـ "مخطوط سمرقند"؟.

ـ إنه على الدوام فوق المنضدة الصغيرة بقرب سريري، ولست أتعب أبداً من تصفّحه، وأنا أحفظ عن ظهر قلب "الرباعيات" والأخبار التي بهامش النصّ.

ـ إني لأهب عن رضىً عشر سنوات من عمري لقاء ليلة مع هذا الكتاب.

ـ وأنا أهب عن رضىً ليلة من عمري.

وفي اللحظة التالية كنت منكباً على وجه شيرين، وتلامست شفاهنا وانطبقت أجفاننا، ولم يعد من وجود حولنا لشيء سوى رتابة صرير الجنادب المضخّم في رأسينا المرهقين. وكانت قبلة طويلة، قبلة لاهبة، قبلة السنين التي عبرت والعقبات التي ذلّلت.

وخوفاً من وصول زوار آخرين ومن اقتراب بعض الخدم فقد نهضنا وتبعتها في ممر مسقوف وباب لا يخطر في بال أحد أنه موجود وسلّم مكسّرة الدرجات وصولاً إلى جناح الشاه السابق الذي امتلكته حفيدته. وانغلق مصراعان ثقيلان وأزلج مزلاج ضخم وأمسينا وحيدين معاً.

ولم تعد تبزير مدينة منعزلة عن العالم، بل كان العالم هو الذي يذوي بعيداً عن تبريز.

www.ibtesama.com

وقبّلت عشيقتي الملكية في سرير ذي أعمدة وسجف. وحللت بيدي كل عقدة وكل زرّ وشرعت أعيد بأصابعي وراحتي وشفتيّ رسم كل انحناء من انحناءات جسدها, وكانت تهبه لدغدغاتي وقبلاتي الخرقاء, وكانت تطفر من عينيها المغمضتين دموع حرّى.

وعند الفجر لم أكن قد فتحت "المخطوط" بعد. وكنت أراه على منضدة صغيرة إلى الجانب الآخر من السرير, بيد أن شيرين كانت تنام عارية ورأسها فوق عنقي وثدياها متروكان لصق ضلوعي, وما كان شيء في الدنيا ليجعلني أتحرك. كنت أستنشق زفيرها وعبقها وليلها, وأتأمل أهدابها وأبحث يائساً عن حلم السعادة أو الكرب الذي كان يرعش تلك الأهداب. وعندما استيقظت طلائع صخب المدينة قد ترامت إلينا. وكان عليّ أن أتوارى على عجل واعداً نفسي بتخصيص ليلة غرامي القادمة لكتاب "عمر الخيّام".

حوالي العاشرة صباحاً اتصلت "بهجة الصباح" يشوب صوتها بعض الارتباك.

كانت تعتذر أنها لم تتمكن من الاتصال بي ليلة أمس, واتفقنا على اللقاء بعد الظهر بعيداً عن المكتبة, ووعدتها أن أحضر الكتب التي تحتاجها معي. ولحظة إغلاقي سماعة الهاتف كانت سمكة زرقاء تتخبط في ستارتي, وأنا متأكد أنها لن تعود إلى الماء الذي كانت تسبح فيه أبداً. وكنت طيلة فترة الظهيرة أفكر بأفضل طرق الطهي وأفضل أنواع التوابل تأثيراً.

لدى اطلاعي على ما أنجزته بهجة الصباح من رسالتها الجامعية خلال لقاءنا في "مقهى الهافانا" اكتشفت على الفور في أي مستنقع كانت تغطس, خصوصاً في النماذج الروائية التي اختارتها بموافقة الدكتور المشرف, كما أنها لم تسمع بأسماء روائيين عرب كثر, من مصر والمغرب وليبيا والسعودية وحتى سورية, وبدت مهمتها عصيبة فيما لو نفذت مقترحاتي بإضافة أسماء وإقصاء أسماء أخرى موجودة في قائمتها, ولفرط تأثري قررت أن أسفح الجلسة كاملة حول بحثها مؤجلاً خططي وكمائني إلى لقاءات قادمة, وإن لمّحت لها زيارة مكتبتي

www.ibtesama.com

والإطلاع عن كثب على كنوزي في الوقت الذي تختاره، دون أن أنسى نصائح أوفيد بلمس يدها أو ملامسة ساقها بأصابعي، وأنا أبحث تحت الطاولة عن ولاعتي التي وقعت في غمرة انفعالي حول انهيار التعليم الجامعي.

انكمشت بهجة الصباح مثل وردة ذابلة في كأس أمام سيل معلوماتي ومقترحاتي لتطوير رسالتها، وفي هذه اللحظة تماماً سحبت رواية "سمرقند" من بين الكتب التي وضعتها على الطاولة وقلت لها: "من الأفضل أن تقرأي هذه الرواية أولاً كنوع من الاستراحة، وهي هدية مني لك".

شكرتني بامتنان، ثم طلبتُ الفاتورة من النادل. حاولت أن تفتح حقيبتها لتدفع الحساب فرفضت بشدة وأنا أمسك يدها لمنعها من إخراج النقود. وضعت المبلغ على الطاولة وخرجنا.

كان بيتها في الضواحي كما أوضحت لي، ومن الصعب أن تتأخر في المدينة أبعد من التاسعة والنصف، لكنها وافقت أن نمشي قليلاً. وحبذا لو رافقتها إلى موقف الحافلات تحت جسر الرئيس. انحدرنا باتجاه ساحة فكتوريا ثم انعطفنا يميناً، وعند الجسر المعلّق المحاذي للمتحف صعدنا الدرج بتمهّل. وتحت رذاذ من مطر خفيف أمسكت يدها فأفلتتها، ثم أحطت خصرها بعنف وعانقتها. حاولت أن تفلت مني، لكنني أمسكت يدها وحصرتها بين أصابعي وأنا أقول: "أية غيمة هطلت بك في صحرائي".

عاتبتني في نهاية الدرج بلطف على حماقتي، ووجدتها فرصة للاستفسار عن وضعها العاطفي، فنفت أن يكون لها أية علاقة وهي منصرفة إلى الدراسة فقط، ولحظتها تأكدت أية زمردة تلمع في طريقي الوضاء إلى الجنة، حتى لو أخفت بعض أسرارها عني.

انقطعت عن الذهاب إلى المكتبة خلال الأيام التالية، وكنت انشغلت في إعادة قراءة وصايا كاليفينو حول كتابة الرواية، وفي الوقت ذاته أردت اختبار قوة تحمّل بهجة الصباح على فراقي واختبار قدرتي على الحب مجدداً بعد أن

www.ibtesama.com

أطاحت لمياء بكل عواطفي، وجعلت مني كائناً حسياً بامتياز، تحركه شهواته ورغباته لا أكثر، ويمكن أن يباهي فرويد به في أعتى المؤتمرات الفلسفية، مؤكداً صحة نظريته في التحليل النفسي، فيجعل ماركس يغوص تحت مقعده فاقداً هيبته إلى الأبد.

كنت أعرّي النساء في شارع الحمراء بالجملة مثل حصان هائج بلا رسن في مزرعة للخيول، وأفك أزرار القمصان على عجل، سيما أن السرة أصبحت مكشوفة، مما يسهل مهمتي في المناطق الأخرى، دون أن أنسى توجيه الشكر الجزيل لمصممي الأزياء في ابتكار هذه السراويل الضيقة الملتصقة بالجلد، وفي هذه المناسبة أخص بالشكر صاحب تلك المخيّلة الفريدة في اختراع سراويل بسحّابات من الخلف.

وفي "مقهى الروضة"، كنت أختار طاولة في موقع استراتيجي في مواجهة الحاجز البلوري الذي يفصلها عن شارع العابد الحيوي للغاية، حيث تتهادي أيائل روايتي بالعشرات، وكانت الفرصة متاحة أمامي لاختيار ما أشاء من غابة السيقان هذه رغم ضجيج المقهى ومشاركتي في النقاشات الساخنة حول الانتفاضة والمجتمع المدني وحرب أفغانستان وحرية الصحافة والفساد وملامح الألفية الثالثة، دون أن أنسى بالطبع تركيزي على أقدامهن، أصابع أقدامهن على وجه الدقة، لاعتقاد راسخ تعزز لدي في السنتين الأخيرتين أن أصابع القدم هي المقياس النهائي لجمال المرأة وأن امرأة قبيحة القدم لا يمكن أن تكون جميلة في تفاصيلها الأخرى، وهكذا كنت أشطب ببساطة أي امرأة لا تتوافق مع نظريتي هذه رغم قناعتي أن نعومي كامبل أو كلوديا شيفر لن تمر في شارع العابد للتسوق من محلات الصالحية، وكنت مأخوذاً بمجلات الأزياء العالمية التي تخصص صفحات لا بأس بها لأحذية الموسم الصيفية تحديداً، وعروض الأزياء في شاشة التلفزيون حيث تتبارى الأصابع الحريرية في الكعوب العالية منزلقة إلى الأمام بتحدٍ يجعلك ترفع ناظريك بكل ثقة المنتصرين نحو

www.ibtesama.com

صاحبة هذه القدم، وأنت متأكد أنها الأميرة الأخيرة المحتجزة في قصر الملك المخلوع.

ووصل هوسي بأصابع القدمين حداً لا يصدق لدرجة أنني شرحت الأمر لمصور فوتوغرافي تربطني به معرفة قديمة، وشجعته على أن يخوض تجربة تصوير أصابع الأرجل أثناء وجوده في حفلات الفنادق الكبرى، لكنه لم يستوعب ما طلبته منه مستغرباً مثل هذا المزاج الغريب، وحين لاحظ غضبي من عدم فهمه لنظريتي قال مهادناً: "ولكن كيف سألتقط مثل هذه الصور؟ هل تريدين أن أنبطح تحت الموائد لالتقاطها؟ وهل أطلب من صاحبة القدم التي تعجبني أن تميل بقدمها قليلاً إلى اليمين أو اليسار مثلما أفعل تجاه الوجوه" ثم أضاف بعصبية: "إنني أحتاج إلى عدسة خاصة لالتقاط مثل هذه الصور، وهي ليست بحوزتي على أي حال". أجبته بحماس وأنا أستعرض أمامه ألبوماً كاملاً من صور ممثلات وعارضات أزياء تبدو أقدامهن بوضوح: "احصل على هذه العدسة اللعينة، وسأدفع لك أجراً مضاعفاً عن الصورة الواحدة". وأنهيت المقابلة بأن وعدته بإقامة معرض تصوير ضوئي للوحاته الموعودة في المركز الثقافي الفرنسي.

الصّور التي جلبها لي بعد أيام ووضعها أمامي باعتزاز كانت بحالة يرثى لها، وكأنها ملتقطة خصيصاً لمجلة طبية تعنى بالشلل أو أورام القدمين، وهي مقصوصة عند نهاية الكاحل لا أكثر، ولم تصل واحدة منها إلى حدود الركبة. أعدت الصّور إلى المغلف ثم ألقيتها بوجهه شاكراً جهوده، وأرفقتها بعبارة واحدة مليئة بالغيظ:

"شكراً لزوجتك، ولكنها لا تصلح لمثل هذه المهمة، فهي ليست سامية جمال ولا حتى فيفي عبده".

لم تكن لديّ خطة محكمة لرؤية أصابع قدمي بهجة الصباح، خصوصاً أنني تورطت بذكر عبارة وردت قبل قليل وهي: "تحت رذاذ من مطر خفيف".

www.ibtesama.com

وهذا يعني ببساطة أنني تعرفت عليها في فصل الشتاء، وبالضرورة كانت تنتعل جزمة تخفي قدميها تماماً، هذا إذا تجاهلنا وجود جوارب سوداء تغطي ما فوق ركبتيها، فالدقة مطلوبة في رصد التفاصيل، وهي إحدى وصايا ايتالوكالفينو الخمس على أي حال، ولا يمكن تجاهلها بهذه السهولة وإلا كنت اخترعت تصوراً آخر عن لقائي بها كأن ينزلق كعب جزمتها أثناء صعودنا درج الجسر المعلّق المحاذي للمتحف فتستند إليّ بكل عزمها كي لا تقع، ثم تضطر إلى خلع جزمتها لإعادة المسامير إلى مكانها، وبالتأكيد لن تخلع جواربها، وبالتالي لن أشكّل صورة حقيقية عن أصابع قدميها في تلك العتمة الخفيفة.

وكنت على وشك ارتكاب حماقة مشابهة تتعلق بالمخطوطين الموجودين في مكتبة أحمد الثالث في تركيا بعد أن وجدت حلاً مناسباً للحصول على المخطوط الثالث الموجود في دار الكتب المصرية، وهو أن أوصي على نسخة مصوّرة منه مع أي شخص مسافر إلى القاهرة، إذ راودتني فكرة ملحة أن أكتب الجملة التالية: "حين وضعت قدميّ في مطار اسطنبول عصر ذلك اليوم بقصد الحصول على المخطوطين المفقودين.."ولم أكمل الجملة لأنني لم أكن متأكداً أساساً إذا كانت مكتبة أحمد الثالث في اسطنبول أم في أنقرة، ثم ماذا يفعل روائي حشرة مثلي في اسطنبول وأنا بهذا الكسل الذي وصل بي إلى أن أتناسى زيارة ضريح نزار قباني الذي يبعد عن منزلي مدة عشر دقائق في التكسي؟ فما بالك بالسفر إلى اسطنبول؟

وحقيقة الأمر كانت الأمور تسير كما على سجادة فارسية في هذا الاتجاه لولا أن اتصلت لمياء وأخبرتني أنها تتكلم من هاتفها المحمول من موقع التصوير، وترغب أن أسجل رقمها لدي في حال أردت مكالمتها، وقبل أن تنهي المكالمة المشوّشة الصوت، أضافت: "ربما سأزورك هذه الليلة بعد انتهاء التصوير لمناقشة أمر ضروري".

www.ibtesama.com

أغلقت السماعة وأنا أفكر بهذا الأمر الضروري لدى لمياء. لكن الهاتف رنّ مرة أخرى فقلت على الفور: "أهلين لمياء" وقد اعتقدت أن مكالمتها انقطعت فجأة. فأجابني الصوت على الخط الآخر: "أنا بهجة الصباح". اعتذرت عن الخطأ غير المقصود وقلت: "آسف كنت أتحدث مع صديقة من باريس وقد انقطع الخط فجأة".

قالت: "توقعت أن أراك اليوم في المكتبة؟". أجبتها: "كنت مشغولاً. وأنت كيف أحوالك؟". قالت: "كنت منهمكة بقراءة الرواية". قلت بعدم مبالاة: "وأين وصلت في القراءة؟" قالت: "أنهيتها أمس. ولولا أن الوقت كان متأخراً لاتصلت بك". قلت: "تعلمين أنني أسهر طويلاً .. وهل أعجبتك؟". قالت: "طبعاً. إنها ممتعة ولم يسبق أن قرأت كهذه رواية". قلت: "ينبغي أن تشكريني إذن". قالت: "لا أعلم كيف أشكرك. فعلاً أنا سعيدة بالتعرف إليك". قلت متمادياً: "أرغب أن تعبّري عن سعادتك عملياً". قالت: "كيف؟". قلت: "بشيء محسوس". قالت ببلاهة ربما: "محسوس! مثل ماذا؟". قلت: "محسوس يعني مثل الكرسي الذي تجلسين عليه الآن". قالت: "ولكنني في سريري". قلت: "لو كنت الآن إلى جانبك لكنت شرحت الأمر على نحو أفضل". قالت: "ألا ترى أن الأمر مبكّر على مثل هذه الأمور؟". قلت بنبرة مسرحية: "سأعترف لك أنني فكرت بك منذ رأيتك أول مرة في المكتبة الظاهرية. وأعتقد أنه زمن طويل بالنسبة لي. إذا لم أقل دهراً. وحين رأيتك في المكتبة الوطنية قلت إن فينوس نفسها تبارك مثل هذا اللقاء". قالت: "فينوس؟! لا أعرفها". قلت: "آلهة الحب". أطلقت ضحكة عالية وجذلة ثم قالت: "متى أراك؟". قلت: "الآن". قالت: "صعب. ما رأيك غداً؟". قلت: "كما تشائين". قالت: "الساعة السابعة أمام المكتبة الوطنية. ولا تنس أن تجلب معك رواية أخرى". قلت: "قبلاتي" وأنا أرى هذه المرة سفينتي بكامل أشرعتها تبحر وتبحر دون أن تعترضها جبال الجليد العائمة ومراكب القراصنة. وها هي تتهادى مقتربة من الشط لتلقي مرساتها بكل أمان.

www.ibtesama.com

مرة أخرى وقعت في الحيرة، حيرة اختيار رواية تحمل بريدي كاملاً إلى أحضان بهجة الصباح دون أن تعرقله طوابع أو ساعي بريد غبي لا يصل العنوان بدقة ولا في الزمن المناسب. وقع اختياري على رواية "أفروديت" لإيزابيل الليندي. قلت لنفسي: إنها وجبة كاملة من التوابل الجنسية، مطمئناً إلى أن الجرعة التي تناولتها بهجة الصباح كان مفعولها جيداً وقد أصابت الهدف بدقة. وبعد تفكير وقع اختياري على رواية ثانية لإيزابيل الليندي هي "باولا" لأن "أفروديت" من الروايات التي يمكن أن تحبها من أول صفحة أو أن تلقي بها من النافذة.

أما "باولا" فهي مزيج من السيرة الذاتية والحب والألم، وبإمكانها أن تترك تأثيراً فعالاً في القارئ خصوصاً من نوع مثل بهجة الصباح.

أحضرت قلمي الفوسفوري وبدأت البحث عن المقاطع المناسبة. ولأنني قرأت هذه الرواية منذ زمن بعيد لم أقع بسهولة على مرادي، لكنني اكتشفت ما يلزمني أنا في كتابة روايتي، خصوصاً الفصل الذي تحكي فيه عن طريقتها في الكتابة ومفهومها للرواية، وكيف كتبت روايتها الأولى "بيت الأرواح"، ثم ظروف كتابتها لروايتها الثانية "الحب والظلال"، وما شجعني أكثر أننا أقصد (أنا وإيزابيل) نشبه بعضنا في بعض التفاصيل، فها هي تقول في الصفحة (٣١٧) من "باولا": "واصلت الكتابة ليلاً في مطبخ بيتنا في كاراكاس، ولكنني كنت قد تطورت، فقد أصبحت أستخدم الآن آلة كاتبة كهربائية" ثم تضيف: "أحاول أن أكون وحدي في مكان يخيّم عليه الصمت لساعات طويلة، إنني أحتاج إلى زمن طويل لكي أنتزع من رأسي ضجة الشارع وأنظف ذاكرتي من فوضى الحياة. ثم أشعل شموعاً لأستدعي ربات الإلهام والأرواح الحافظة، وأضع زهوراً فوق طاولتي لأبعد الملل. كنت أهيئ ذهني وروحي من خلال طقس سري لتلقي الجملة الأولى وأنا في غيبوبة، وهكذا ينفتح باب أرى من خلاله وميض الجانب الآخر وألمح الإطار النائم للقصة التي تنتظرني".

www.ibtesama.com

وهكذا لأول مرة أشعر أن المطبخ مكان مثالي للكتابة. لست وحدي إذاً من يكتب في المطبخ. ولأول مرة أيضاً أكتشف جماليات حمالة الأطباق المعدنية. إنها تشبه رفوف مكتبة صغيرة. أما الأطباق فإنها تشبه الكتب. فهناك الخزف والبلور والألمنيوم والفخار والبلاستيك. عدا عن تلك الأرواح الصامتة في الرف العلوي. أقصد تلك القطرميزات الساحرة التي تشبه لوحة تجريدية بألوانها المتداخلة بفوضى وانسجام: قطرميزات طويلة وأخرى قصيرة. للبن والفلفل والنعنع والملح والسكر والشاي والزيت البلدي والعصفر.

وهناك أيضاً فناجين القهوة وأكواب الشاي وركوة القهوة النحاسية والمجمع البلاستيكي للسكاكين والملاعق الذي يشبه المقلمة. وحنفية المغسلة وسلة القمامة التي شهدت بصبر وصمت عشرات المسودات التي كنت ألقيها في جوفها بعصبية ونفاذ صبر.

فجأة سمعت صوت كعب حذاء لمياء بكل صخبه ينحدر على الدرج. وقبل أن ترن الجرس فتحت لها الباب. ظهر طرف السيناريو خارجاً من حقيبتها. قالت وهي تسترخي على الكنبة. مباعدة ساقيها: "أنا بحاجة إلى مساعدتك".

ـ قلت: "بماذا؟"... سحبت السيناريو من حقيبتها وقالت: "دوري في المسلسل يحتاج إلى بعض التعديلات. ولن أجد أفضل منك لهذه المهمة. أنت تفهم ما أريد".

قلت: "هل أخبرت المخرج بالأمر؟". قالت:"ليس لديه مانع بإضافة بعض المشاهد. لكن الشطب ممنوع". قلت: "وما طبيعة المشاهد المطلوب إضافتها؟" قالت: "ألا تقرأ دوري أولاً؟ إنه لا يتجاوز العشرين مشهداً". هززت رأسي موافقاً. مدت يدها نحوي وأمسكت بيدي وهي تجرني نحوها. وعانقتني بذراعيها فشعرت بخدر مفاجئ وأنا أسترخي فوق صدرها مغمض العينين. عبثت بأصابعي فوق شفتيها المنفرجتين وقد مالت برأسها على كتفي ثم رفعت رأسي ونظرت نحوها وكأنني أراها لأول مرة. حضنت وجهها بين يديّ وقبلتها ثم انزلقت شفتاي نحو عنقها ثم شحمة أذنها. قالت بفحيح أفعى: "كفى". فتحت الزر العلوي لقميصها.

www.ibtesama.com

قالت بعويل: "ماذا تفعل؟". قلت: "إنني أكتب المشاهد المطلوبة". قالت بغضب لبوة: "إذا كان الأمر مقايضة, فإنني أرفض خدماتك". قلت: "أبداً, ولكن كي أغوص في الحالة أكثر. أليست المشاهد المطلوبة مشاهد حب". قالت: "بلى". قلت: "أين المقايضة إذن... إنني أقوم بعملي على ما يرام". قالت:"الوقت متأخر, ينبغي أن أعود إلى البيت. غداً لدي تصوير". قلت: "نامي هنا". قالت: "ستمرّ سيارة التصوير صباحاً على بيتي, ولا أريد فضائح".

نهضت من مكانها, واتجهت إلى الحمّام لترتيب شعرها ومكياجها, فلحقت بها بعد أن ألقيت نظرة على دورها. كانت تقف أمام المرآة وتسند حاجياتها على طرف المغسلة. قلت: "هل تتركين السيناريو لدي". قالت: "لا فرق, لدي نسخة إضافية من مشاهدي". كنت أحدثها بواسطة المرآة وأنا أحضن خصرها, ثم انزلقت يدي إلى زر بنطالها وفككته على مهل, فيما كانت منشغلة بترتيب كحلتها, وأرخيته إلى الأسفل. قالت بلا مبالاة: "كفى زعرنة".

ازددت التصاقاً بها, ويداي تضغطان على صدرها بعنف, حاولت أن تتملص من بين ذراعي دون جدوى, وأخيراً استندت بيديها على طرف المغسلة وأرخت رأسها باستسلام, وبحركة تجيدها ببراعة أرخت جذعها إلى الخلف, ثم شهقت, فيما كان حيواني الأعمى, يتوغل في نفقها المظلم بوحشية.

قالت لمياء وهي تصعد الدرج خارجة بعد ربع ساعة من الصمت: "متى تنهي كتابة المشاهد؟". قلت: "بعد يومين على الأكثر". أجابت: "سأتصل بك بعد يومين". وطيف ابتسامة معاتبة على شفتيها.

أغلقتُ الباب واتجهت إلى سريري أستعرض "مآثري الأيروتيكية" مع لمياء تحديداً, وانتهيت إلى أن هذه الأنثى نصف قديسة ونصف عاهرة, وما يهمني نصفها الثاني بالتأكيد, لأن زمن القديسات ولّى بلا رجعة مع آخر فلول روايات القرن التاسع عشر, حين كانت الكنائس والأديرة تغص بمثل هذه الكائنات المتدثرعات إلى الرب بلا هوادة.

www.ibtesama.com

قفزت من السرير فجأة وقد دب بي حماس مباغت لمراجعة آخر مسودة أنجزتها من روايتي، إذ لاح أمامي خيط حريري ربما يخفف من وطأة الحماقات التي ارتكبتها خلال الكتابة. فقبل هذه اللحظة بثوانٍ انتبهت إلى قطعة النسيج الصوفية المعلقة على الجدار المقابل وقد غطّاها الغبار. وقفت أمامها مباشرة أتأمل الأشكال التي حاكتها جدتي بقرن غزال قبل ثلاثة وثمانين عاماً، لتكون جزءاً من جهاز عرسها، وكان يشترط أن تكون بحياكة أصابعها كإشارة على مهارتها وقدرتها على الابتكار لمواجهة صعوبات المعيشة. كانت القطعة النسيجية عبارة عن خُرج بطول متر ونصف وعرض لا يتجاوز الذراع، ويسمى "معنّقة" نسبة إلى عنق الجمل، يوضع كأرضية لهودج العروس بعد أن يملأ بحاجياتها الخاصة. وكانت جدتي أهدتني هذا الخرج النادر قبل سنوات بوصفي أحد المصابين بلوثة الفلكلور والثقافة المحلية وأكبر أحفادها الذي ربته في حجرها ست سنوات كاملة تفلي شعره من الصئبان وتروي له حكايات قبل النوم. ومن فرط فرحها بإعجاب حفيدها بهذا الخرج المهمل في زاوية من غرفتها قادتني إلى صندوق أغراضها وبأصابعها المرتجفة أخرجت صرة مدفونة في عمق الصندوق، فتحتها بتأنٍ وأخرجت ما فيها من خرز ملون وودع وأحجار مصقولة ومثقوبة كانت تستعمل كتعويذة للأرواح الشريرة، ومكحلة نحاسية بمرودَ حشبي، وخلخال من الفضة. قالت: انتقِ ما ترغب به من ذكريات جدتك، وحين تتزوج أبلغ عروسك أنها هديتي لها. وودّعتني بأجمل دعاء سمعته في حياتي: "دربك أخضر".

كان الخرج مزيناً برسوم وأشكال غرائبية وبألوان غير متناسقٍ بعضها مع البعض، فالحصان أو ما يشبه كان بلون قرمزي، والنخلة التي بدت أصغر من الحصان كانت بلون خمري، وهناك أشكال هندسية لم تخطر في بال فيثاغورث نفسه. لكن نظرة شاملة إلى النسيج بأكمله تمنح العين يقيناً أن هذه الأخطاء هي جزء أساسي من بناء اللوحة أو المشهد المتخيّل قبل نسجه.

www.ibtesama.com

وكأن كل ما كان يخطر في بال جدتي لحظة اشتغالها (بلوحتها)، قابل المتحقق، وينطوي على مخيلة مفتوحة على احتمالات لا تحصى غير محكومة بأية عقلانية. وهو ما انتبه إليه ميلان كونديرا لاحقاً في روايته "الخلود" إذ يقول: "على كل من يتوافر لديه القدر الكافي من الجنون لكي يستمر اليوم في كتابة الروايات أن يكتبها بطريقة تجعل اقتباسها متعذراً حماية لها. بعبارة أخرى، طريقة تجعلها غير قابلة لأن تروى". ويضيف متهكماً من حبكة الروايات التقليدية المتشابهة: "للأسف فإن جميع الروايات المكتوبة هذه الأيام تقريباً، تتقيد أكثر من اللازم بقاعدة وحدة الفعل. أعني أنها جميعاً قائمة على تسلسل سببي وحيد للأفعال والأحداث. هذه الروايات تشبه شارعاً ضيقاً تلاحق الشخصيات على طوله بضربات السوط. التوتر الدرامي هو اللعنة الحقيقية للرواية، لأنه يحول كل شيء حتى أجمل الصفحات، وحتى المشاهد والملاحظات الأكثر مفاجأة إلى مجرد مرحلة تقود إلى الخاتمة النهائية حيث يتركز معنى كل ما سبق. وإذ تلتهم الرواية بنار توترها الخاص ذاته فإنها تمحق مثل حزمة من القش".

كتبت في دفتر ملاحظاتي الذي صار مثل خريطة حربية: "جدّتي أعظم روائية في العالم، حاكت بقرن غزال كل أحلامها وطلاسمها ثم استراحت إلى الأبد".

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً. وفقدت كل اتصال مع شياطين إلهامي. ارتديت ملابسي على عجل وخرجت أهيم في الشوارع. مررت ببار قذر يشبه مرآباً للسيارات يدعى "فريدي". ومن فتحة الباب لمحت أحد أصدقائي الكحوليين وقد أسند كوعه على الطاولة، ربما كي لا تنهار تحته بعد أن تآكلت أطرافها. دخلت وسحبت كرسياً وجلست قبالته. ابتهج لرؤيتي وصبّ لي كأساً من النبيذ الوطني ثم أخرج من حقيبته حفنة من البزر الأبيض ووضعها في الطبق الفارغ. قلت له: "أنهيت جولتك باكراً". أجاب: "لم أذهب إلى

www.ibtesama.com

العمل أساساً". وكان صديقي هذا يعمل في أغرب مهنة في العالم, لطالما أثارت تهكّم معارفه, إذا كان المطلوب منه يومياً القيام بجولة ليلية لإحصاء عدد النيونات المعطوبة على طريق المطار حرصاً على سلامة المسافرين, خصوصاً المواكب الرسمية, وتسجيل الأماكن التي توجد فيها الأعطال, وما كان يثير التهكم أنه سكران طوال اليوم, ومصابيحه مطفأة على الدوام.

رفع كأسه فجأة وقال: "أين وصلت في نظرية أصابع القدم؟. حقاً إنها نظرية عميقة". ثم أضاف: "اطمئن, قريباً سنتحول إلى حزب جماهيري". قلت: "كيف؟". قال: "بسبب الشعار الذي سنختاره لحزبنا.. ما رأيك أن يكون ساقاً لامرأة حافية.. تعلم أن الجماهير متعطشة من المحيط إلى الخليج لشعار كهذا مثير وبرّاق". قلت له بإعجاب: "اعتبر نفسك منذ هذه اللحظة الأمين العام للحزب". رفع كأسه وقال: "بصحة منظّر الحزب".

كانت عينه اليسرى شبه مغمضة أثناء حديثه معي, قلت وقد انتبهت للسواد المحيط بها: "ما بها عينك؟" قال ضاحكاً: "سرّ حزبي لا أحب أن أفشيه لأحد في الظروف الراهنة". قلت: "ولكنني لست أحداً". قال بعد أن سكب ما تبقى من كأسه في جوفه: "تعلم حجم حماسي لنظرية الحزب منذ شرحتها لي قبل أشهر,وكنت خلال الصيف الماضي ملكاً متوجاً في شارع الحمراء والصالحية, ثم وسّعت حدود مملكتي إلى شارع باب توما ومحيط القصّاع أتأمل أصابع الأميرات بشغف لا يوصف, ولكن نشاطي تراجع هذه الأيام بسبب الشتاء اللعين الذي حرمني من متعة النظر لأسباب موضوعية, على أن قادني عقلي إلى فكرة جهنمية, وهي الوقوف أمام واجهات محلات بيع الأحذية النسائية, وهكذا صار لدّي دوام إضافي لمدة ساعة أو ساعتين يومياً, أتملى أجمل أقدام الموسم وأسجّل ملاحظاتي حول أهمية البنصر والخنصر في جمال القدم وتأثير الإصبع الوسطى على رونق القدم, إلى أن تورطت في معاكسة إحداهن والتغزل بأصابع قدميها, فاستدرجتني إلى شاعر مجاور وقد اعتقدت أن أموري تسير على ما يرام, وحين

www.ibtesama.com

صعدت إلى سيارتها سلمتني لسائقها الشخصي الذي كان واقفاً على الرصيف بانتظارها, وحصل ما حصل. ثم أردف: لكنني لست نادماً على أية حال, أضاف وهو يصب كأساً أخرى: يمكنك اعتباري أول شهيد حي في الحزب.

عدت إلى المنزل وحيداً بعد أن تركت الأمين العام للحزب نائماً على الطاولة وأنا أفكر ببهجة الصباح ثم بلمياء, وبالسيناريو الملقى على الكنبة. تصفحت دور لمياء على عجل ووضعت بقلم رصاص أفكاراً للمشاهد التي ينبغي إضافتها بين المشاهد الموجودة على أن أنجزها صباحاً, وأحسست أنني مثل "حمار ديبرون" الذي ظل حائراً بين امرأتين إلى أن فقدهما معاً. رددت بصوت عال: "إذا أراد الله هلاك النملة أنبت لها جناحين", ثم تراجعت عن خططي في إنهاء علاقتي بلمياء, فعصفور في يدك خير من كركي في الهواء. ربما سيلحظ البعض أنني أستعمل الأمثال بكثرة في هذه الفترة من حياتي, والسبب لا يتعلق بحكمة مبكرة بقدر ما يتعلق بمسألة بسيطة هي أنني انتبهت فجأة إلى ما هو مكتوب على صفحات الروزنامة المعلقة ورائي على جدار المطبخ وصرت أسجل الأمثال التي تعجبني على الحائط المحاذي للطاولة التي أكتب عليها هذه الرواية, الأمر الذي يساعد في تخفيف بعض ارتباكي في ملاحقة شياطين إلهامي الهاربة, وهكذا توصلت إلى نتيجة عادلة بخصوص لمياء وبهجة الصباح معاً, وهي أن بهجة الصباح مجرد قصة قصيرة جداً, أما لمياء فهي رواية طويلة, ولا أعتقد أن عاقلاً يضع كل بيضهْ في سلة من نوع "ق.ق.ج" ويدع الغبار يغطي صفحات رواية ماجنة مثل لمياء, وعلى هذا الأساس شطبت مثلاً كنت أنوي الاستفادة منه في هذه الحانة حصراً وهو: "من أكل على مائدتين اختنق", وقررت بكامل قواي العقلية أن أقبل بشهية على ما لذ وطاب مما هو موجود في المائدتين بكل عنفوان القبطان الذي يواجه عاصفة عاتية دون أن يساوره الشك لحظة أن سفينته ستنجو في نهاية المطاف حتى لو تمرغت أشرعتها. كدت أكتب (عن بكرة أبيها).

www.ibtesama.com

بهذه الروح القتالية ذهبت إلى موعدي مع بهجة الصباح مع تغيير طفيف طرأ على خططي السابقة. حيث استبدلت رواية "باولا" برواية أخرى شعرت أنها ستعجّل في حرق المسافات بيننا على نحو أسرع. وهي رواية "امتداح الخالة" لأعظم كاتب إيروتيكي. كدنا نخسره للأسف عندما تم ترشيحه قبل سنوات لرئاسة الجمهورية في البيرو. ولحسن الحظ لم يفز ماريو بارغاس يوسا في الانتخابات. ولم يتعبني إطلاقاً البحث عن مقاطع مناسبة. وبالتالي استعمال قلمي الفوسفوري الذي كاد يجف حبره. وكذلك لم أضطر للتوغل في صفحات الرواية بعيداً. فأينما أصوّب بندقيتي أجد أرنباً أو غزالاً في مرماي. ففي الصفحة (١٢) مثلاً وقعت على هذه الدرر المنثورة: "وتركت يدها اليسرى على بطن دون ريغوبيرتو. ولكن ما لمسته يدها كان سارية بشرية منتصبة ونابضة.

- ما هذا؟ ما هذا؟ هتفت دونيا لوكريثيا وهي تضغط عليه وتشده وتفلته وتستعيده. انظر ما الذي وجدته. يا للمفاجأة.

كان دون ريغوبيرتو قد رفعها فوقه وراح يقبلها بتلذذ مرتشفاً شفتيها ومباعداً ما بينهما. وبينما عيناها مغمضتان وهي تحس بطرف لسانه يستكشف تجويف فمها ماراً على اللثتين والحلق محاولاً تذوق كل شيء والتعرف عليه بقيت دونيا لوكريثيا لوقت طويل غارقة في ذهول سعيد. إحساس كثيف ونابض بدا وكأنه يلين أعضاءها ويفتحها. ويجعلها تطفو. تغرق. تدور. وفي عمق ذلك الإعصار اللذيذ كانت هي. والحياة. وكأنها تطل وتختفي في مرآة تفقد زئبقها. ترسم أحياناً وجهاً دخيلاً لملاك أشقر. كان زوجها قد رفع قميص نومها وأخذ يداعب إليتيها في حركة دائرية ومنهجية. بينما هو يقبّل نهديها سمعته يدمدم بأنه يحبها. ويهمس بعذوبة أن حياته الحقيقية قد بدأت معها. قبلته دونيا لوكريثيا من عنقه وعضعضت حلمتي صدره إلى أن سمعته يتأوه. ثم لحست ببطء عشيّ إبطيه اللذين يهيجانه كثيراً. واللذين كان دون ريغوبير قد غسلهما وعطرهما لها بعناية قبل أن ينام.

www.ibtesama.com

سمعته يخرخر مثل قط مدلل، يتلوى تحت جسدها، وأخذت يداه المتسرعتان تبعدان ما بين ساقي دونيا لوكريثا بشيء من الحنق، تجلسانها القرفصاء فوقه، تريحانها، تفتحانها.

أنَّت متألمة ومستمتعة بينما هي ترى في زوبعة مشوشة صورة للقديس سبيباستيان مصاباً بسهم مصلوباً ومبللاً. راودها إحساس بأنها قد نطحت في منتصف قلبها، ولم تتمهل بعدئذ فقد أغمضت عينيها ووضعت يديها وراء رأسها، ودفعت صدرها إلى الأمام ممتطية مهر الحب ذاك الذي يتأرجح بها على إيقاعه مدمدماً بكلمات تكاد لا تكون مفهومة إلى أن أحس بأنه يموت.

وسألته مستفهمة وهي في العماء:

ـ من أنا؟ من تراني كنت؟

وانفجر دون ريغوبيرتو تائهاً في حلمه:

ـ أنت زوجة ملك ليديا يا حبي".

قالت بهجة الصباح وهي تتأمل غلاف "امتداح خالة": "تبدو رواية رومنسية". وكان يزين الغلاف رسم لامرأة عارية الصدر تعانق طفلاً، وهو تفصيل من لوحة تعود إلى عصر الباروك. قلت: "لا تخلو من رومنسية". أجابت: "بالمناسبة، هل تحب كتابات جبران خليل جبران؟" قلت باستياء: "أعتقد أن هناك أشياء يفعلها المرء مرة واحدة في حياته، مثل لقاح شلل الأطفال أو السل، وقد قرأت "الأجنحة المتكسرة" في المرحلة الإعدادية، وأذكر أنها تركت أثراً طيباً لدي لا أتصور أنه سيكون نفس الأثر اليوم". ووجدتها فرصة لتنظيف دماغها مما علق به من روايات ليس لها من ميزة سوى الورق الصقيل وغزارة إنتاج مؤلفيها وظهورهم المتكرر في صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون مؤكداً على أهمية "الإمتاع والمؤانسة" في أي عمل أدبي، وكي أقترب من هدفي خطوة قلت: "خذي رواية (سمرقند) مثلاً. ألم تقرأيها بمتعة وشغف؟". قالت: "بلى ولكنها إباحية بعض الشيء". قلت وأنا أحفر بمعولي التراب الذي تقف عليه: "شخصية شيرين مثلاً،

www.ibtesama.com

أليست رائعة". قالت بارتباك: "نعم". قلت: "ليس من مهمة الروائي أن يكون واعظاً. ففطائر الحكمة المزوجة بعسل الفضيلة تملأ الدكاكين والزوايا والتكايا. أما الحياة فهي في مكان آخر. وحين أدركت أنها أصبحت كبطة مبللة خارجة للتو من بحيرة يغطيها الجليد. قلت: "ما رأيك أن نمشي قليلاً". نهضت على الفور وهي تتأمل سحر المكان في سوق الشيخ محي الدين حيث تناولنا وجبة لذيذة من الفول. أشرت إلى جامع قديم بمحاذاتنا. قلت: "هنا يرقد الشيخ محي الدين بن عربي. أعظم الفلاسفة الصوفيين". ثم انحدرنا باتجاه وسط المدينة. وعند ساحة الجسر الأبيض انعطفنا إلى زقاق ضيق. وقد باغتتها أصابعي وهي تضغط على أصابع يدها المطمئنة في جيب معطفها الطويل. وكما رسمتُ في ذهني وجدنا أنفسنا فجأة أمام بيتي تماماً. قلت: "هنا أقطن. ما رأيك بكوب من الشاي الساخن؟". رفضت بشدة مبررة الأمر بتأخرها عن العودة إلى بيتها في الضواحي. قلت لها وأنا أسحبها من يدها نحو الدرج: "لن تتأخري. وهي فرصة لأن تتفرجي على مكتبتي". كنت فتحت الباب ووضعت يدي على كتفها ودفعتها برفق كي ندخل. أغلقت الباب وأشعلت النور. قالت وهي تتأمل اللوحات على الجدران: "بيتك أليف". قلت: "لأن حمامة مثلك خفقت بأجنحتها بين جدرانه".

كانت مكتبتي موزعة بين الصالة وغرفة النوم والمطبخ وداخل صناديق الكنبات وفوق الثلاجة بما يشبه متاهة كتب. ضغطت على زر آلة التسجيل فتصاعدت موسيقا إيقاعية من مؤلفات ربيع أبي خليل. كانت بهجة الصباح لا تزال واقفة وسط الصالة. مرتبكة إلى حد ما رغم ابتهاجها الخفي. قلت: "اجلسي. ريثما أحضر الشاي". قالت: "ليس ضرورياً". قلت: "كأس عصير إذن؟". هزت رأسها موافقة وهي تقلّب صفحات رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم.

انهمكت على عجل بإعداد العصير: برتقالتان وليمونة ورمانة. ثم أضفت قليلاً من الجن وخلطت المزيج. فيما كانت ذبابة الشهوة تطن في رأسي بقوة.

www.ibtesama.com

قالت وهي تتناول الكأس: "لم أقرأ لهذا الكاتب من قبل" . قلت: "ولكنه روائي معروف، وقد حقق شهرة واسعة منذ روايته "تلك الرائحة" ولاحقاً "اللجنة".

جلستُ قبالتها وقلت: "أين وصلتِ في رسالة الماجستير؟". قالت: "بعد أن استمعت إلى ملاحظاتك أحسست أنني بحاجة إلى تركيز أكبر. لكن المشكلة أن الدكتور المشرف اشترط عليّ الكتابة عن روايات محددة". قلت: "المهم أن تتخرجي، وبعدها، القِ نصف هذه الروايات في برميل القمامة". قالت: "هذا ما سأفعله. والآن دعني أذهب". حين همت بالوقوف، أمسكت ذراعها وضممتها بعنف إلى صدري. قالت: "ماذا تفعل. لقد فاجأتني. لم أكن أتوقع مثل هذا التصرف منك". قلت وأنا أبحث عن شفتيها: "لم أستطع مقاومة سحرك". أطبقت فمي على شفتيها وألقيتها على الكنبة مجدداً، وكانت طلائع جيوش مقاومتها بدأت بالاستسلام. جسست بأصابعي خديها وعنقها وقد أغمضت عينيها، ثم انحدرت إلى صدرها وفخذيها، وزهرتها، فأمسكت يدي بقوة وأبعدتها، فعدت اضطرارياً إلى هضابها العلوية أستكشف الكنوز المخبوءة في المناطق التي مررت بها على عجل، وأنا أهمس في أذنها: "أنت شيرين أم بهجة الصباح" فيما كانت يدي الأخرى تخلع حذاءها، وتتلمس بخبرة الصائغ أصابع قدميها من فوق حرير الجوارب السوداء الشفافة.

حين فتحت عينيّ وسط الظلمة لم أتعرف على الوقت تماماً، لكنني أدركت أنه ليل. أشعلت النور ونظرت إلى ساعتي، كانت قد تجاوزت العاشرة بعشرين دقيقة، وأحسست بما يشبه الدوّار يلف رأسي: هل قابلت بهجة الصباح فعلاً أم أنني أضعت موعدي معها؟

صنعت فنجاناً من القهوة ودخنت ثلاث سجائر.

حاولت استعادة ما رأيته في المنام، لكنني لم أتذكر إلا تفصيلاً واحداً هو أن قلمي الذي أستعمله في كتابة مسودة روايتي قد جفَّ حبره. بحثت عن القلم وجربته، فوجدته سليماً. ولم أعثر على تفسير لهذا المنام غير أن مخيلتي ستّجف

www.ibtesama.com

قريباً. رغم أن الشخصيات والأحداث كانت تطاردني في كل مكان أتواجد فيه، وكدت أصدق أنني روائي فعلاً، وأكثر من ذلك، راودني إحساس أنني سأفاجئ الأوساط الأدبية بـ "يتيمة الدهر". دون وازع من ندم،لا بل ساقتني أوهامي إلى جبال أكثر وعورة، ووضعتني حتماً وجهاً لوجه مع "قارئي العزيز" بوصفي "ذلك الخالق السحري للنص الذي يتمتع بتبجيل غامض لدى القراء الجدد الذين يتحرقون شوقاً للالتقاء شخصياً ولو مرة واحدة على الأقل بذلك الصانع، بذلك الإنسان الجسد الذي يحتوي العقل الذي خلق الدكتور فاوست، وتوم جونس، وكانديد". وكدت أضيف اسم روايتي في نهاية هذا السطر لولا أنني لم أقع على عنوان مناسب لهذياني اليومي إلى الآن، وما أثبط عزيمتي في نهاية هذه التأملات الليلية هو ما أورده آلبرتو مانغويل في كتابه الممتع "تاريخ القراءة" في فصل "الكاتب كقارئ": "سبع نسخت بيعت" هكذا فكر بطل رواية «كابوس آبي» لمؤلفها توما لوف بيكوك، الصادرة عام ١٨١٨. "سبعة رقم سحري. هذا فأل حسن. عليّ أن أتقفى أثر مشتري هذه النسخ السبعة الذين سيصبحون المشاعل الذهبية السبعة التي ستنير العالم أمامي".

فكرت بالمصير التعس الذي تنتظره روايتي، لكن ما أنار المشعل أمامي حقيقة في تلك اللحظة المظلمة من الخيبة، صديق قديم يعمل محاسباً في أحد المصارف الزراعية، ولديه خبرة لا بأس بها في تصريف الكتب بأنواعها: أدبية أو طبية أو تعبوية أو علمية إلى درجة أنه جعلها أحد الأوراق الثبوتية التي لا بد منها قبل تسليم أي قرض لصف طويل من المزارعين الذين كانوا يتوافدون إليه صباحاً ويخرجون في الظهيرة وقد تأبط كل واحد منهم مؤلفاً على الأقل من هذه الكتب العجيبة دون أن يفهم لماذا عليه أن يقتني هذه البضاعة، وهو لا يجيد القراءة في الأصل مكتفياً بالفرجة على صور المؤلفين وقد أسند كل واحد منهم قبضة يده على خده الأيمن في الغلاف الأخير من الكتاب دون أن يجد للأسف من يصفعه على خده الأيسر قبل أن يفتك بقراء جدد لا حول لهم.

www.ibtesama.com

وما زاد في اطمئناني النجاح الساحق الذي حققه أحد المؤلفين ممن يكتب إنشاءً نافلاً، تنبعث منه رائحة فساء ناتجة عن بلاغة مطبوخة بسموم مهدرجة، إذ باع من روايته الأخيرة بفضل تعميم صارم على الجهات العامة باقتناء هذه الجيفة، آلاف النسخ في ثلاث طبعات متتالية وجدت طريقها بكل يسر إلى مستودعات مؤسسات الإسمنت والحديد المبروم والأعلاف والدواجن والحبوب والمطاحن وشركة الإطارات ومؤسسات أخرى غامضة. وعلمت أنه وقّع عقداً لتحويل هذه الرواية إلى مسلسل تلفزيوني بثلاثين حلقة، وهو الآن يحتسي المتّة في شرفة منزله الجديد وقد امتلأت بطنه بغازات جديدة أكثر فتكاً، يفكر بإطلاقها بعد انتهاء حرب أفغانستان مباشرة، وبعد التأكد من مصير ابن لادن الذي يقلقه بعض الشيء.

وكنت على وشك إرسال الشحنة الأولى من روايتي عن طريق مكتب سفريات القدموس، للبريد السريع مكتفياً بألف نسخة لقراء الأقاليم، لولا أن هاتفي كان يرن بإصرار وهذا ما جعلني ألعن الاختراعات الحديثة وأنا أرفع السماعة.

كانت لمياء على الخط تطمئن على مصير المشاهد التلفزيونية التي ينبغي استكمالها. قلت لها: "إنها جاهزة وبإمكانك المرور بأي وقت كان". ثم أضفت بمكر: "حتى لو بعد منتصف الليل". أجابت ضاحكة: "أنت تحلم". قلت: "وأنت تمزحين". قالت: "اسمع. غداً لدي تصوير في بيت عربي قديم في باب توما، ما رأيك أن نلتقي هناك". قلت: "حسناً. أنا بانتظار مكالمة منك غداً".

أغلقتُ السماعة، ثم تناولت السيناريو واتجهت إلى المطبخ، وخلال نصف ساعة اخترعتُ ستة مشاهد متوسطة الطول، ثلاثة منها في الحديقة، واثنان في الميكروباص، والمشهد الأخير مونولوج في الغرفة، لا تجرؤ على النطق به الليدي ماكبث، ويدور حول الغدر والخداع، ثم وضعت أرقاماً للمشاهد ودسستها داخل

www.ibtesama.com

السيناريو معوّلاً على إعجابها بما كتبت مقارنة بالثرثرة التي يغص بها النص، ولسان حالي يقول: "لا يكافئ من يطحن الدقيق بأحسنت".

في طريقي إلى باب توما، أودعت مسودة روايتي في مكتب للخدمات الطباعية، على أمل مراجعتها لاحقاً على الكمبيوتر، وتشذيب الأعشاب الضارة التي تسللت إلى أوراقي، وإضافة بعض الجمل والفواصل وعلامات الترقيم الضرورية، لكن ما أربكني في اللحظة التي غادرت فيها المكتب أن تستاء الفتاة التي أوكلت إليها مهمة طباعة المسودة من بعض المقاطع المتهتكة المبثوثة في فصول الرواية، خصوصاً أنها كانت محجّبة، وهو ما يزيد الأمر سوءاً، ثم تراجعت عن مخاوفي في الحال، وقلت: "لا شك أنها معتادة على مثل هذا الخيال الروائي، ثم من قال إنها متخصصة في طباعة كتب القراءة للصف الأول الابتدائي، عليك أن تنسى الأمر، إنها مهمتها على أي حال، وهي لا تعمل دون مقابل". وأضفت وأنا أدخل في الزقاق الذي يقع فيه البيت حيث يتم تصوير المسلسل: "ربما خلصتها من ضجر فظيع أصابها بعد طباعة كتاب عن العولمة أو مكافحة التصحر".

انتظرت لمياء نحو نصف ساعة ريثما تنتهي من تصوير لقطة صامتة في الدور الذي تؤديه في المسلسل، وكنت أراقب صورتها على "المونوتور"، في الإعادات المتكررة للقطة بسبب ملاحظات المخرج وأخطاء التقنيين مركزاً عيني على حركة شفتيها المكتنزتين، شفتاها اللتان بطعم العسل المذاب بالحليب، كما همست بأذنها في لحظة تجلٍ قديمة أطاحت بجبروتها وعنادها إلى تعلق شديد، تحول بعد أشهر إلى غيرة كبلتني وكبلتها بقيود لا فكاك منها، لتأخذ شكل الانتقام والكراهية حيناً، وجنون العشق في أحيان أخرى، إلى أن شفيت تماماً من حبها، وأدركت هي أن لا أمل لمثل هذا الحب في الاستمرار، لكن رائحة الشهوة المتبادلة ظلت كلمة السر بيننا، فحين خرجنا من مكان التصوير إلى بار قريب من المكان، قالت فجأة: "أجمل ما فيك وحشيتك". أجبت: "هذا لأنك ببساطة

www.ibtesama.com

مازوشية من طراز رفيع". وأضفت: "على أي حال أنا في الخدمة لمدة أربعة وعشرين ساعة يومياً فقط". قالت وهي تسكب كأساً إضافياً من البيرة: "فشرت". قلت: "بالمناسبة هذا العرض لمدة محدودة لأنني أعيش هذه الأيام قصة حب مختلفة". قالت بتهكم: "أنت؟!.." قلت: "وما المانع؟" ثم أضفت وأنا أنفث دخان سيجارتي بوجهها: "نحن الروائيين يا آنسة لا نستطيع العيش بدون قصص حب لأنها بمثابة الوقود لإشعال المخيلة وتعيين مصائر الشخصيات". قالت باستنكار: "بهذه البساطة.. نحن الروائيين!.. ومتى أصبت بهذه الكريزا. كنت تقول إنك سوف تكتب مسلسلاً تلفزيونياً. ماذا حل به؟". قلت: "المسلسلات التلفزيونية تكتب لتسلية ربات المنازل. وهذا ليس شأني". قالت: "وكيف ستسدد ديونك المتراكمة". قلت: "من مبيعات روايتي.. وفي أسوأ الأحوال ستتكفل جائزة سعاد الصباح بالأمر". قالت بجدية: "ولكن فكرة المسلسل التي حكيتها لي منذ مدة فكرة رائعة. وفي حال أنجزتها ستتخاطفها شركات الإنتاج".

قلت: "انسَي الأمر". قالت: "فعلاً أحزنتني" قلت بشرود وكنت للتو أنهيت قراءة مذكرات هرمان هسه: "على كل مبدع أن يشرع برحلته عبر جحيم وعيه ليسلّم بفوضى روحه في مملكة الروح السرمدية". قالت: "دعنا من روحانيتك الآن". قلت: "حين تقرأين سدهارتا ستغيرين رأيك". قالت: "ولكنك تشبه ذئب البوادي. ألم تكن معجباً بهذه الرواية؟". قلت: "بالطبع. ولكن لكل مقام مقال".

قالت: "تتحدث معي وكأنني لا أعرفك". قلت وأنا أخرج قصاصة ورق من جيبي كتبت عليها حكاية أعجبتني: "اسمعي هذه الحكاية: حدث في بغداد أن زوّج رجل متقدّم في السن ابنته من اسكافي. وفي ليلة العرس عض الإسكافي المنتشي شفة الفتاة حتى أدماها. وفي الصباح الآتي رأى الأب الجرح فقال: أمن الضروري أن تعض أسنانك ابنتي مثلما تفعل بجلد الحذاء؟

www.ibtesama.com

ـ لا تعتد على هذا! أنا لست مازحاً. عندما تحدث معاكسة أثناء الجماع لا يزيل آثارها إلا الموت".

قالت بانتصار: "المهم أن تذكر كلمة الجماع أليس كذلك. عدت إلى طبيعتك فوراً ونسيت مملكة الروح السرمدية".

قلت: "أعترف أنني كنت معك مثل هذا الاسكافي".

قالت: "فات أوان مثل هذا الكلام". قلت: "جرّبي". قالت وهي تنهض: "سأدفع الحساب".

أمضيت نقاهة طويلة في سرير الحب الإلهي متنقلاً بين بساتين جلال الدين الرومي وسعدي الشيرازي وفريد الدين العطار وابن الفارض والحلاج أرتشف الخمرة الإلهية وأغوص في معنى الروح دون أن أصل إلى يقين مردداً بصوت هازئ مقاطع من قصيدة الناي لجلال الدين الرومي: "اقتلع المبدع قصبة من أجمة القصب. ثقبها عدة ثقوب. ثم سمّاها إنساناً. ومنذ ذلك الوقت تنوح من ألم موجع بسبب الفراق. ناسية البراعة التي أعطتها حياة الناي".

وعرجتُ على دكان فريد الدين العطار عارضاً عليه المساعدة في نسخ مؤلفاته المئة وأربعة عشر مخطوطاً. وبدأت بالفعل في نسخ "منطق الطير" و "أسرار نامة". فيما كان معلمي منشغلاً بعلاج مرضاه بعطر الورد. وبقيت على هذه الحال إلى أن شهدتُ مقتله في نيسابور على يد المغول. سنة ١٢٢٠ ميلادية. وتمكنت بمعجزة من إنقاذ ثلاثين مخطوطاً من مؤلفاته. من بين ألسنة النار. وفي شيراز رافقتُ حافظ الشيرازي إلى مقابلة تيمورلنك بعد أن غزا المدينة وقتل سبعين ألفاً من سكانها. وقد قابله حافظ بأبيات من إحدى قصائده: "إذا كانت الحسناء تقبلني فسأعطيها بدل خالها سمرقند وبخارى. ما جعل تيمورلنك يقول بغيظ: بسيفي الصقيل أخضعت معظم العالم. وأنت شاعر بائس سيء الحال تبيع مدينتي وقاعدة ملكي بخالٍ على خدّ فتاة!".

www.ibtesama.com

أجاب حافظ حانياً رأسه احتراماً: "أنت على حق،إنه بسبب هذا الإنفاق المتهوّر ألتُ إلى الحال البائسة التي تجدني عليه الآن". فأعفى عنه وقدّم له أعطية. وعندما حانت ساعة موته أوصاني أن أكون حارساً لقبره. وصرت كلما وجدت شاهدة القبر مهدّمة أعيد بناءها. وأشرح للعامة أن معلمي شمس الدين حافظ الشيرازي لم يكن شاعراً متحللاً كما يعتقدون. ولكنه كان يدرك قوة الحواس في إذكاء جذوة الحب في القلوب الميتة. وهو حين دخل متاهة الكون أراد إجلاء حقيقة الجسد. وأنكم لا ترون اللؤلؤة الكامنة في أشعاره لأنكم تكتفون بالنظر إلى المحارة فحسب. وهكذا جرت العادة على أن يذهب بعض الناس إلى ضريحه بتبجيل عظيم فيفتح ديوانه كيفما اتفق ليرى فيه إجابة عن تساؤلاته الغامضة. وكنت في الليل. على ضوء شمعة. أنسخ تمائم لمريدي معلمي كهذه التميمة:

"هل الأشواق هي كلُّ ما يوجد في الحب؟

مُديتُك أفضلُ عندي

من مرهم الآخرين

اجعل رأسي تُرساً

لا تشدد عنان الفرس

ولا تطلق له العنان

شدّني بإحكام إلى طوق السرج

الذي تستخدمه في اللهو البسيط

عندما يقع غبار من أعتابك

على رأسي يقولون: حافظ توّج ملكاً".

وفي ركن من ضريح الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي اتخذت لي مكاناً أراقب الزوار حيناً وأغوص في صفحات "الفتوحات المكية" حيناً آخر. وقد زادت

www.ibtesama.com

قناعتي بأن "كل ما لا يؤنث لا يعول عليه" وحين أتممت الرسائل, قرأت "ترجمان الأشواق" وركعتُ أمام ضريحه أردد:

"لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

فمرعىً لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان, وكعبة طائف

وألواح توراة, ومصحف قرآن".

إلى أن أخذتني سنة من نوم, وحين فتحت عيني ألتيت نفسي في حضرة النفري, وهو يقول لي:

"يا عبد, الحرف ناري... الحرف خزانة سري", وقال لي: "إذا علمت علماً لا ضد له وجهلت جهلاً لا ضد له فلست من الأرض ولا من السماء", وقال لي: "إذا رأيت النار فقع فيها ولا تهرب, فإنها إن وقعت فيا انطفأت وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك", وقال لي: "قيمة كل امرئ, حديث قلبه", وقال لي: "فعل القلب أصل لفعل البدن", وقال لي: "كل محب مشتاق ولو كان موصولاً".

أمام مرآة الحلاقة, كنت أتأمل ذقني التي طالت وعيني الغائرتين وحالتي الرثة, فأدركت أنني فشلت في اجتياز مفازة الروح وأن خلوتي علمتني النطق أكثر مما علمتني الصمت والرؤيا, وأن مصيري معلّق بفتنه الجسد أولاً وأخيراً, وأن الريحان يفوح من تراب الجسد وليس فوق الغيوم, وفجأة ازداد شغفي برؤية بهجة الصباح, وعلى عجل رممت الجرح الذي تركته الشفرة في أسفل ذقني وارتديت ثيابي مثل ثعلب خارج من مقبرة, يتشمم رائحة طريدة, وتحت المطر وقفت أنتظر محبوبتي دون أن تأتي, ودون أن يغلبني اليأس اتجهت إلى كبين للهاتف موجود عند ناصية الشارع واتصلت بمعبودتي وأحسست أن كلمة "ألو" التي قالتها بهدوء تشبه رنين الفضة, أجبت: "المطر ذكّرني بك". قالت: "أنت!". قلت: "أريد أن أراك الآن". قالت: "لا أستطيع الخروج في مثل هذا الجو, ثم إنني لا أريد أن أراك". قلت وقد أحسست بتهدج صوتها: "قدرك أن تلتقي". قالت:

www.ibtesama.com

"وقدرك أن تنتظر إلى الغد". قلت: "ولكنني مشتاق لك أكثر مما تتصورين". قالت: "أنا خائفة منك". قلت وأنا أقرأ على زجاج الكبين عبارة: "حلّق مع براق": "لو كان لي أجنحة لخبطت بأجنحتي على شباك غرفتك و..." وعند هذا التجلي الأخرق انقطع الخط. بحثت في جيوبي عن قطعة معدنية من النقود لإتمام المكالمة فلم أجد. عقدت العزم على أن أكمل حديثي معها في المنزل.

مشيت تحت المطر. ريثما تعبر تكسي فارغة. صاعداً شارع جواهر لال نهرو ترافقني أطياف شخصيات روايتي دون أن تكتمل ملامحها. وأكثر ما أربكتني بهجة الصباح ذاتها بعد أن أفردت لها فصلاً في الرواية وأخذت حيزاً لا بأس به دون أن أجد حيثيات مقنعة لإقحامها بكل هذه القوة. فأنا بالكاد أعرفها مقارنة مع لمياء. وإذا افترضت بما تبقى من إرثي الروحي أنها هي الروح وأن لمياء هي الجسد فإن القارئ سيبصق في وجهي وهو يكتشف فجأة أنني أحد أحفاد السهروردي بعد كل هذا التهتك مع لمياء.

وما زاد يقيني بعدالة قضية لمياء أنني فور عودتي إلى الكتابة مزّقت نحو سبع صفحات دون أن أجد العبارة المناسبة لإتمام ما كنت كتبته قبل أيام في وصف رائحة النعنع البري المنبعث من إبطي بهجة الصباح. لأنني في حقيقة الأمر لم أتمكن من الوصول إلى هذه المنطقة الوعرة. وبالكاد تمكنت من ملامسة صدرها من فوق كنزة الصوف. وأسوأ من ذلك كله أن القلم الذي كنت أستعمله للكتابة قد جف فعلاً ولم أستطع كتابة كلمة واحدة بالأقلام الأخرى التي وجدتها والتي جرّبتها واحداً وراء الآخر بلا أمل.

اضطررت أخيراً إلى مغادرة أوراقي حانقاً. وقد سيطر عليّ شعور قوي أن القدر يعاندني. أشعلت سيجارة ووضعتها في طرف فمي على طريقة حنا مينة. وأخذت أروح وأجيء أمام نافذة المطبخ لاقتناص أفكار جديدة. لكن رائحة قلي باذنجان نفّاذة منبعثة من مطبخ الجيران أرغمتني على مغادرة مكتبي فوراً.

www.ibtesama.com

اتجهت إلى الصالة. وقد خفّ حماسي في مكالمة بهجة الصباح منشغلاً بمشاهدة تقرير كانت تبثه فضائية "الجزيرة" عن أوضاع الأفغانيين بعد إطاحة حكم طالبان. حيث خطف حلاّق "كابول" كاميرات التلفزة في اللحظات التي تلت سقوط سلطة حركة "طالبان" وقمعها. ولطالما شدد هؤلاء قبضتهم على الأنفس والعقول بممارسة جبروت طاغٍ على الأجساد. وصار حلق الذقن شبهة تقارب المعصية وتضع من يمدّ يده إلى ذقنه في موضع المعارضة السياسية.

أما المرأة الأفغانية فقد تخلصت من أغرب زي اخترعته المخيلة البشرية وهو عبارة عن خيمة تغطي جسم المرأة بالكامل عدا بعض الثقوب عند الوجه كنوع من فتحات التهوية وكأنها خارجة للتو من مزرعة لتربية النحل.

بانتهاء التقرير. أغلقت جهاز التلفزيون وقد انتابني إحساس هو أن العالم ذاهب إلى حتفه لا محالة. وأن الحضارة البشرية والمدنية برمتها تعيش الأمجاد البربرية بكل بهاء القرون الوسطى. ولكن بأحدث آلات القتل والفناء للفتك بالأرواح الهائمة أينما كانت لمجرد الاختلاف في العقيدة أو الرأي. وأنني شخصياً لا أختلف كثيراً عن الآلة الجهنمية الأمريكية في محاولاتي المستميتة لإخراج بهجة الصباح من كهفها السري الذي تختبئ فيه. وقد رفعت الراية البيضاء مستسلمة بكامل عريها أمام خنجر رغباتي المجنونة.

وكي لا أتمادى في أوهامي أكثر من ذلك. تناولت كتاباً عن الحب العذري كان موجوداً فوق المنضدة كواحد من مراجعي في كتابة روايتي. قلبت صفحاته بملل ثم بحثت في الفهرس عما يثير شهيتي للقراءة. ولفت انتباهي فصل صغير مخصص لمجنون ليلى. لكنني ما إن قرأت السطور الأولى منه حتى شعرت بالملل مجدداً. إذ كان المؤلف يحاول ببلاغة جوفاء تمجيد شعراء الحب العذري واستبعاد أية شبهة شهوانية مؤجلة عن حيواتهم متجاهلاً بقصدية فاضحة المعاني الكامنة في نصوصهم للخروج بخلاصة مدرسية تتناسب مع مقدمته المحشوة بحلوى الفضيلة وكستناء الملائكة. خصوصاً أن دراسات

www.ibtesama.com

أخرى معمقة ورصينة أكدت أن عذرية هؤلاء كانت قسرية أكثر منها خياراً روحياً أو فلسفياً وأن مجنون ليلى بالذات لم يكتفِ بالوقوف عند سور المدرسة التي كانت تدرس ليلى فيها علوم النحو والبلاغة ثم ينصرف بكل أدب أسوة بزملائه أمثال: عمر بن أبي ربيعة وعروة بن حزام وجميل بثينة. بل كان يتسلل إلى حوزتها كلّما سنحت له الفرصة. خصوصاً أيام الخميس عندما كان والداها يذهبان إلى السينما لمشاهدة فيلمهما المفضّل. وأعتقد أنه "ذهب مع الريح" وقد خبأته ليلى أكثر من مرة في فراش خادمتها حين كانت تفاجأ بعودة والدها مبكراً من المقهى والشرر يتطاير من عينيه. إثر خسارة فادحة يتعرض لها في مباراة للعب طاولة النرد مع زعيم شاب من قبيلة العامريين أو بني عذرة. مما يضع ليلى في موقف صعب لا تحسد عليه إطلاقاً.

وما خفف وطأة غضبي حكاية مؤثرة يرويها الشاعر سعدي الشيرازي عن سيرة المجنون: سمع ملك العرب بقصة المجنون وحبّه ليلى فدعاه إلى قصره ثم سأله: ماذا رأيت فيها حتى صرت تنسى نفسك وتجرح يدك عندما تقشّر برتقالة؟. أجاب المجنون: حبذا لو أمكن أن تراها.

فتّشَ الملك وجيء بليلى. كانت ناحلة الجسم سمراء أقل جاذبية من أقل جواريه إشراقاً. قال المجنون: آه ينبغي أن تراها من نافذة عينيّ. فثمة فرق كبير بين أن تمسك شيئاً من الملح بيدك وأن تضعه على الجرح".

ولا أعتقد أن المجنون كان يعني في إجابته مجرد النظر إليها عن بعد وهي منهمكة في إعداد موقد النار لغلي حليب النوق.

أول ما فعلته بعد قراءة هذه الحكاية البحث عن دفتر ملاحظاتي وتدوينها فيه بقلم رصاص وجدته على المنضدة. وخطر في بالي أن أرويها لبهجة الصباح ضمن سياق مناسب بحيث تفهم على الفور أنني المجنون. وهي ليلى بالطبع. ثم تناسيت الفكرة تماماً خشية التباس ما سوف يحصل من قبلها فيقودنا الحديث إلى الشعر العذري وجماليته. وهو ما لا يتناسب مع جهة سفينتي المبحرة بكل

www.ibtesama.com

قوتها إلى شاطئ آخر، خصوصاً أن بهجة الصباح ـ كما أتوقع ـ تكون قد أنهت قراءة "امتداح الحالة" وعلى ضوء اكتشافاتها الخاصة، سأدير دفة سفينتي.

وقبل موعدي معها بنحو ساعة ونصف قمت بجولة على مكتبات القرطاسية لشراء قلم حبر أسود من النوع نفسه الذي كنت أستعمله فابتعت ثلاثة أقلام، جربتّها بدقة داخل المكتبة خوفاً من عدم صلاحيتها، إضافة إلى أوراق مسودة، وقلم فوسفوري جديد، وآخر بلون زهري، واخترت قلماً على شكل بطة ضاحكة كهدية رمزية لمعبودتي وقد زادت دهشتي من مخيلة هؤلاء اليابانيين السحرة في اختراع كل هذه الأنواع من الأقلام وأدوات القرطاسية، وتساءلت بجدية:

ترى بأي نوع من الأقلام كتب ياسوناري كاواباتا روايته الشهيرة "بيت الجميلات النائمات"؟.. وبالمناسبة فهي الرواية الوحيدة التي تمنى ماركيز لو أنه كتبها، ثم تخيلت أنني كاتب من العصر العباسي، وكم كنت سأكابد في الكتابة على ورق خشن من لحاء الشجر أو على رقعة من جلد الجمل أو جلد الغزال وأنا أقبض على ريشتي المصنوعة من القصب بأناة ثم أغمسها في الدواة لالتقاط الحبر المصنوع من شقائق النعمان والبنفسج ولسان الطير وأزهار برية أخرى ليس لها أسماء مطحونة ومغلية بقدور ضخمة قبل أن تأخذ شكلها النهائي، وتوضع في أوعية صغيرة في دكاكين الورّاقين ودواوين الخليفة ومحلات النقّاشين، هؤلاء الذين كانوا يصنعون ألوانهم السرية التي لا يعرفها أحد غيرهم، تاركين وراءهم علامة تدل على هذا النقّاش أو ذاك، قد تكون زهرة متناهية الصغر أو التواء في حاجب امرأة أو حركة مجهولة في قوائم حصان أو امتداد في حرف ما في آية قرآنية أو قول مأثور للتأكيد على صحة العبارة القائلة: "الخط لسان اليد".

وفي طريقي عرّجت على مدرسة ابن البواب الخطاط الذي تعلّم الصنعة على يد شيخ الخطاطين أبي علي بن مقلة، وكان منهمكاً في نسخ القرآن الكريم

www.ibtesama.com

للمرة الرابعة والستين بالخط الريحاني. وقد أُهديت النسخ إلى السلطان سليم الأول الذي أهداها بدوره إلى جامع "لاله لي" بالقسطنطينية. ونسخة بخط الريحاني وتوقيعه. موجودة اليوم في مكتبة تشستربيتي في دبلن.

أما طريقته في العمل فيصفها بقوله: "ينبغي أن تظهر الحروف موصولة ومفصولة ومعمّاة ومفتّحة في أحسن صيغها وأبهج خلقها متساوية الأجزاء في تجاورها والتئامها". كما روى حادثة جرت معه وقد أسندت إليه خزانة الكتب على عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة في شيراز:

"رأيت يوماً في خزانة الكتب بشيراز في جملة أجزاء منبوذة جزءاً مجلداً بأسود. ففتحته فإذا هو جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن بخط أبي علي أبن مقلة. فأعجبني وأفردته. فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط في جملة الكتب إلى أن اجتمع تسع وعشرون جزءاً وبقي جزء واحد. استغرقت لتفتيش الخزانة عليه مدة طويلة فلم أظفر به. فعلمت أن المصحف ناقص فأفردته ودخلت إلى بهاء الدولة وقصصت عليه القصة. فقال لي: تممه لي. قلت: السمع والطاعة. ولكن شريطة أن إذا أبصرت الجزء الناقص منها ولم تعرفه تعطيني خلعة ومئة دينار. قال أفعل. أخذت المصحف من بين يديه وانصرفت إلى داري. دخلت الخزانة. أقلب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف وكان فيها من أنواع الكاغد السمرقندي والصيني العتيق. وكل ظريف عجيب. فأخذت من الكاغد ما وافقني وكتبت الجزء وذهبّته وعتّقت ذهبه وقلعت جلداً من الجلد وعبّقته.وحين سلمت المصحف كاملاً لبهاء الدولة لم يزل يقلبه جزءاً جزءاً وهو لا يقف على الجزء الذي بخطي ثم قال لي: أيهما هو الجزء الذي بخطك؟. قلت له: لا تعرفه فيصغر في عينيك. هذا المصحف كامل بخط أبي علي ابن مقلة وتكتم سرناً قال أفعل".

إنه السرّ. قلت مخاطباً نفسي بعد أن اتخذت مكاناً يطل على الباب في المقهى بانتظار بهجة الصباح. وتساءلت بخيبة: "ترى ما هو السرّ الذي سأخبئه في

www.ibtesama.com

نسيج روايتي. وبأي نولٍ سأغزل غوايتي التي ستجعل القارئ يقفز من مكانه صارخاً: "هذه ضربة معلم". فقد كانت شهرزاد تخبئ ورقة رابحة على درجة من الأهمية هي فن الحكي. وها هو ابن البواب يطلب من مولاه بهاء الدولة أن يكتم السرّ في أعظم عملية تناص خطية حدثت في القرن الخامس الهجري.

وحتى "أبو صبحي التيناوي" الرسام الدمشقي الذي اشتهر بلوحاته الفطرية المستوحاة من أبطال الحكايات الشعبية أمثال عنترة وعبلة والظاهر بيبرس كان لديه هو الآخر سرّه الخاص الذي لا يبوح به لأحد في رسم شاربي عنترة أو حواجب عبلة أو سيف الزير سالم أبي ليلى المهلهل. فهو حين لا يتسع لوح الزجاج الذي كان يستخدمه في الرسم لذيل حصان عنترة كان بكل بساطة ودون أي تفكير بقواعد المنظور يرسمه في أي فراغ يجده في فضاء اللوحة طالما هي ملكه الخاص. ربما بتأثير تجربة قديمة خاضها في رسم "سفينة نوح". فعلى متن هذه السفينة العجائبية تعلّم كيف أنه بإمكانك أن تجد مختلف أنواع الكائنات في مساحة محددة حيث لا مشكلة إطلاقاً أين تضع الغراب أو الأفعى أو غصن الزيتون.

أما سرّ المهنة الذي خبأه أبو صبحي التيناوي مدة سبعة وسبعين عاماً فلم يبح به لأحد إلا قبيل موته بأشهر. ففي صباح باكر من تموز عام ١٩٧٢، أحس أن نهايته قريبة. فاستدعى أولاده إلى دكانه الصغير في زقاق ضيق بحي باب الجابية. ووسط رائحة الألوان وعطور غامضة ورطوبة الجدران ودّع بمهابة لآخر مرة شخصياته. ودون أن ينطق بكلمة واحدة أمسك ريشته وبدأ بنسخ لوحة "عنتر وعبلة" وهو يتأمل بدقة الخطوط المنحنية لحصان عبلة وعينيّ حصان عنترة في أول لوحة رسمها لهما إذا كان يقلد ما رسمه من قبل. وهذا أول سرّ يكشفه إذ كان من يتأمل رسوماته يعتقد أن التيناوي يرسم من ذاكرته ومخيلته في كل مرة بشكل مختلف عما سبقه من لوحات. وحين انتهى من تخطيطاته الأولية لملامح أبطاله أخذ يمزج الألوان ويوزعها على فراغات

www.ibtesama.com

الأشكال. وفيما كان يزخرف سرج حصان عبلة والحزام المشدود فوق غُرة الحصان ابتكر وردة صفراء بقلب أحمر على بعد سنتيمترات قليلة من رأس عبلة. ومن تحت العباءة المقصبة بالذهب التي ترتديها معشوقة عنترة انبثقت أصابع يدها اليمنى لتمسك برسن الحصان ذي اللون الأحمر. وبأصابع نزقة خط شاربي عنترة المعقوفين إلى الأعلى بالأسود الفاحم.

وعندما اطمأن تماماً لما صنعته يداه مسح ريشته ونظفها من الألوان. ثم غطها من جديد بلون بني غامق وكتب في منتصف اللوحة من الأسفل في المسافة الفاصلة بين قائمتي حصان عبلة: "سورية ـ دمشق ـ أبو صبحي التيناوي ـ باب الجابية ـ زاويت (زاوية) الهندي".

وأمام دهشة أولاده وفزعهم من صعوبة هذه المهنة فجّر سرّ مهنته أو بدقة أكبر سرّ توقيعه الخاص الذي لم يكتشفه أحد غير أولاده إلى اليوم. لكنه وهو يغادر عتبة الدكان الصغير التفت إلى الوراء وقال جملة واحدة: "أوصيكم ألا تنسوا شهامة هؤلاء الأبطال. فحين يحس أحدكم انكساراً في عيني عنترة أو حتى عيني حصانه عليه أن يمزّق اللوحة ويعيد رسمها مرة أخرى".

وفي اللحظة التي كنت أغادر ذلك الزقاق الضيق في باب الجابية مفسحاً المجال لموكب الظاهر بيبرس كي يمر دخلت بهجة الصباح واتجهت نحو طاولتي بابتسامة متواطئة مع ثعلب خطتي وقد حوصر في قن الدجاج. وبادرتني على الفور: "هل كنت نتوقع مجيئي بعد تأخري نصف ساعة عن الموعد". قلت بسكينة تليق بشعراء الهايكو: "أنتظرك العمر كله يا بهجة عمري".

قالت وهي تلقي رواية "امتداح خالة" في حضني مثل عنكبوت سام: "أعتقد أنك أخطأت العنوان هذه المرة". أجبت بحسم: "بالعكس إنها رواية فلسفية. وقد تُرجمت إلى تسع عشرة لغة في العالم. وهذا دليل قاطع أن ما اعتبرته خلاعة ـ كما فهمت من تصرفك الصبياني ـ ما هو إلا جسر لكشف خراب النفس البشرية. وتحطّم القيم الروحية أمام الحالة البهيمية التي وصمت حضارة القرن

www.ibtesama.com

العشرين". ثم أضفت بعتب: "من المؤسف أن تفهم واحدة مثلك تدرس الماجستير عن الرواية تحديداً، الأمور على هذا النحو من السطحية". وأضفت كذلك، وأنا أحرك السكر في فنجان الشاي: "لمعلوماتك يا آنسة، إن كاتب هذه الرواية كان مرشحاً لرئاسة الجمهورية في بلاده، وليس لوظيفة قوّاد في ماخور".

عند هذا الحد توقفت عن هجومي، أشعلت سيجارة وأدرت وجهي باستياء نحو النافذة، أتأمل حركة الشارع.

قالت برجاء بعد أن بللتها أمطاري إلى العظم: "أنا آسفة، لا أقصد إهانتك، ولكنني لست معتادة على روايات كهذه". قلت: "كان الأجدر بي أن أهديك روايات عبير بدلاً من روايات عالمية كهذه".

قالت ضاحكة: "ليس إلى هذه الدرجة. والآن هل جلبت لي رواية جديدة؟".

قلت: "لا". قالت: "لماذا؟". قلت: "قررت أن أترك الأمر لك". قالت: "كيف؟". قلت: "لأنني لا أعلم ما هو مزاجك في القراءة". قالت: "إذا كنت غاضباً مني فسأغادر على الفور". قلت: "كما ترغبين". قالت: "إذا طلبت منك أن توصلني إلى محطة الحافلات، هل ترفض طلبي؟". قلت وأنا أحضن يدها: "اشربي قهوتك أولاً".

انفرجت أساريرها بالرغم من خسارتها المعركة، وقالت: "قلت لي أنك روائي، ولكنني لم أقرأ لك شيئاً، هل لديك رواية منشورة؟". أصبت بالصدمة من سؤالها المباغت فأجبتها بتلعثم: "هذا صحيح، لدي أكثر من مخطوط، لكن دور النشر المحلية لا تغامر بطباعة روايات مثل التي أكتب". قالت: "ما السبب؟". قلت: "ببساطة، لأنني في رواياتي أشتغل على المسكوت عنه، لذلك أفكر جدياً بطبع روايتي الجديدة في بيروت أو المغرب، وربما سوف أشارك في مسابقة نجيب محفوظ للرواية". وهذه العبارة الأخيرة هي الوحيدة الحقيقية التي نطقت بها، إذ خلال السنوات الثلاث الماضية صرفت جهداً كبيراً في المراسلات والذهاب إلى البريد للتأكد من وصول رسائل تخص صندوق بريدي، لكن للأسف "ليس لدى

www.ibtesama.com

الكولونيل من يكاتبه" عدا مرة وحيدة حزت فيها على تنويه من لجنة التحكيم في مسابقة لرواية الخيال العلمي واحتل اسمي الرقم التاسع عشر في القائمة. وكانت أحداث تلك الرواية التي مزّقتها بلا رحمة تدور في كوكب صغير يصطدم به مذنب هالي فيتحول إلى غبار. وكان جميع سكان هذا الكوكب من سلاحف النينجا الضخمة. وأعتقد أنني كتبتها آنذاك بتأثير من فيلم "البرتقالة الآلية" لستانلي كوبريك.

قالت بهجة الصباح: "لدي رغبة في قراءة روايتك الجديدة فور انتهاءك من كتابتها".

أجبت: "لا تزال مسودة أولى. وقد سلمت ما أنجزته منها إلى مكتب التنضيد الطباعي. وهناك سبب آخر يمنعني من تحقيق رغبتك". قالت: "ما هو؟" قلت:"أنت إحدى بطلات روايتي". قالت مندهشة: "أنا!". قلت: "بكل أسف نعم". قالت: "بكل أسف؟!". قلت: "لأن عاصفة مثلك لا يمكن تجاهل قوة ريحها في تحطيم زجاج النوافذ وأسلاك الكهرباء وأشجار الحديقة". قالت بابتهاج: "معقول! إلى هذه الدرجة. وماذا كتبت عني؟". قلت: "هذا سرّ". قالت: "أرجوك. قل ماذا كتبت عني". قلت: "لا تهتمي بالأمر. فقد كان الإمام محمد عبده يقول عن الروايات: إنها كتب الأكاذيب الصرفة". قالت: "تقصد أنك كتبت عني أكاذيب صرفة!". قلت: "شيء من هذا القبيل". قالت فزعة: "مثل ماذا؟". قلت:"تذكرين القبلة الحزينة التي تشبه مأساة إغريقية لسوفوكليس. أنا شخصياً حولتُها في روايتي إلى غرام ملتهب. أما ما هو حقيقي فإنني لم أستطع نسيان طعم الكرز في شفتيك".

ثم أضفت بتضرّع يشبه صلاة الاستسقاء: "آه يا بهجة الصباح. لو تعلمين مقدار ولهي بك. لقد حطمتِ أضلعي دون أن تلمسيها".

قالت بمكر: "أفهم من كل هذه المقدمات أنك تحبني أو بالأحرى تعشقني أليس كذلك؟". قلت: "هذا ما ينبغي أن تعرفيه بإحساس الأنثى". هزت رأسها

www.ibtesama.com

بصمت ثم قالت بذكاء لم أعهده فيها: "وإلى أين سيقود هذا الحب برأيك؟".

قلت: "إلى الدروب التي لا تنتهي حيث معراج العشق".

قالت: "افترض أن الدروب انتهت إلى معراج العشق، ماذا بعد ذلك؟".

قلت: "بوابة الجنة طبعاً".

قالت: "تعني الزواج؟".

قلت باستنكار من يحتسي شوربة فاسدة: "الزواج! هذا الذي يسمونه مقبرة الحب. لا أعتقد أنه بوابة الجنة. ثم إنني خضت تجربتين فاشلتين في الزواج وقد اتخذت عهداً ألا أتزوج بعد ذلك سوى الرواية".

وبعد صمت طويل من قبلها قلت: "ثم لماذا تستعجلين الأمور، ربما سأطلّق الرواية وأتزوجك، وإذا كنت تتصورين أن جميع الثمار تنضج في الوقت الذي تنضج فيه الفراولة فأنت حتماً لا تعرفين شيئاً عن العنب". ولا أعلم من أي كتاب التقطت هذا المجاز، واختتمت كلامي بحديث شريف تدربت مراراً على حفظه: "الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف".

قالت: "دعنا نخرج من هنا. أشعر بصداع في رأسي". قلت وأنا أدفع الحساب: "لا شك أنه صداع الحب، وهو مقدمة ضرورية لروماتيزم العشق".

في الشارع، أمسكت يدها فوراً، دون اعتراض منها، وعند أول انعطافة أحطت خصرها بيدي، وسرنا الهوينى باتجاه ساحة الأمويين، وأخبرتها عن رغبتي في إيصالها إلى المنزل للاطمئنان عليها، لأن الساعة قاربت العاشرة والنصف ليلاً.

وفي الميكروباص المتجه إلى ضاحية قدسيا الجديدة اخترت آخر مقعد، وأجلستها جهة النافذة ملتصقاً بها، وقد وضعت يدي اليسرى على ركبتها، وعند أي اهتزاز للحافلة كانت يدي تنزلق لا إرادياً إلى فخذيها مستغلاً عدم قدرتها على الممانعة بوجود رجل سمين كان يجلس إلى يميني.

www.ibtesama.com

أخبرتني في ساحة دمّر البلد أنها تسكن مع صديقتها في شقة صغيرة، وأن شقيقها المتزوج يطل عليها أحياناً، وأن والدها توفي منذ سنوات، وأنها تشتاق لزيارة والدتها في الضيعة، لكنها تجد صعوبة في السفر، لذلك تكتفي بزيارة كل شهرين.

أخرجت من جيبي القلم الذي ابتعته لها، وقلت: "كي تتذكريني". تناولته بفرح وشكرتني كثيراً وهي تضغط بيدها على يدي في ظلمة الحافلة.

هيأت نفسي لوداع تراجيدي، وقد اقتربت الحافلة من موقف الباص المحاذي لبيت بهجة الصباح، لكنها أصرت فجأة أن أصعد معها إلى الشقة، وأن أتناول القهوة من يديها، وأتعرف على صديقتها سلوى.

كان ضوء الشقة مطفئاً، قالت وهي تضغط على زر جرس الباب: ربما كانت نائمة ثم أخرجت مفتاحاً من حقيبتها وفتحت الباب، دخلتُ وراءها، ثم توقفت في الممر ريثما تضيء الصالة. قالت: "تفضل". ثم اتجهت إلى غرفة سلوى وعادت على الفور وهي تقول: "يبدو أنها لم تعد بعد". قلت وأنا أتأمل جغرافية الشقة الصغيرة: "ما هو عمل سلوى؟". قالت: "ممرضة في مشفى خاص". قلت وأنا أتمنى أن يكون تخميني صائباً: "ربما تكون مناوبة هذه الليلة". قالت: "لم تخبرني". وأضافت: "سأصنع القهوة".

هززت رأسي واتجهت إلى النافذة المطلة على الشارع في الطبقة الثانية من البناء أتأمل الأنوار البعيدة المتناثرة في قمة الجبل، ثم تبعت بهجة الصباح إلى المطبخ، ووقفت عند عتبة الباب وقلت: "لدي رغبة أن أرى غرفتك".

التفتت نحوي بذعر وقالت: "أرجوك لا. لم أرتبها اليوم". قلت: "لا يهم. أود أن أشم رائحة الوسادة التي تضم حرير شعرك كل ليلة". قالت:"انتظرني لحظة".

حملت صينية القهوة ووضعتها فوق طاولة الصالون، ثم فتحت باب غرفتها، وبدأت ترتيب حاجياتها المتناثرة كيفما اتفق، فيما كنت أتصفح بعض المراجع التي تشتغل عليها في إعداد رسالة الماجستير، ولفتت انتباهي شمعة على شكل

www.ibtesama.com

كرة حمراء موضوعة إلى جانب كوميدنيو السرير. أخرجت ولاعتي وأشعلت الشمعة. قالت: "ماذا تفعل؟". قلت وأنا أطفئ النور: "لا شيء".

تجمّدت في مكانها. حائرة. اقتربت منها. وحضنت خديها في كفيّ. وتوغلت أصابع يدي في شعرها. قالت: "أرجوك. ستحضر سلوى في الحال". قلت: "لن تحضر. لا شك أنها الآن منهمكة في مراقبة السيروم أمام سرير أحد المرضى. ولن يموت قبل الفجر بالتأكيد".

قالت: "نشرب القهوة أولاً". قلت: "شفتاك ألذ من أي بن برازيلي".

ثم عضضتها بنعومة من أذنها اليمنى. وانحدرت إلى عنقها. وهي تحاول التملص من بين يدي. ثم ألقيتها فوق السرير عرضانياً وقبلتها من شفتيها. وحين استرخت عضلات وجهها. انحدرت إلى عنقها ونحرها. فيما كانت أصابع يدي تضغط على كتفيها من تحت الكنزة الصوفية. وتزيح رباطة حمالة صدرها إلى أسفل لتصطدم برمان صدرها وتتلمس الهضاب الملساء بعنف.

حين رفعت رأسي إلى وجهها كانت مغمضة العينين وكأنها في حلم.

نهضت على مهل واتجهت إلى الصالة. أشعلت سيجارة وتناولت فنجان قهوة بلذة نادرة.

بعد حوالي عشر دقائق نادتني بصوت واهن. أطفأت سيجارتي الثانية واتجهت نحوها. كانت لا تزال ممددة في السرير. وقد غطت جسدها بحرام صوفي خمري اللون بورود برتقالية. جلست على حافة السرير. وأنا أعبث بشعرها. قلت: "ألم أقل لك إن سلوى مناوبة هذه الليلة". قالت: "وأنت ستناوب معي". قلت مراوغاً: "يجب أن أعود. أصبح الوقت متأخراً".

أمسكت بيدي وسحبتها إلى أسفل الغطاء. كانت عارية تماماً. أطفأت الشمعة وتمددت إلى جانبها. وقد التبس عليّ الأمر تماماً: هل أنا في حلم أم علم. وأدركت لماذا كانت شهرزاد تقول في وصف المواقف العصيبة: "لو كُتبت بالأبر على مآقي البصر. لكانت عبرة لمن اعتبر". ذلك أنني كابدت من الأهوال

www.ibtesama.com

والصعاب أكثر مما كابد السندباد البحري في مواجهة الأنواء والعواصف في رحلاته إلى بلاد الواق واق والجزر المجهولة التي لم تطأها قدم، وتذوقت ثمار أشجار لم أذقها من قبل، وتمنيت ألا أغادر هذه الجزيرة أبداً. وكما في كل المنامات الرائعة التي تنتهي غالباً بكابوس. قفزت بهجة الصباح فجأة من سريرها بفزع وقالت:

"لقد وصلت سلوى. إنني أسمع وقع خطواتها على الدرج".

ارتدينا ثيابنا بسرعة تليق بلاعبي سيرك، وخرجت بهجة الصباح تستطلع الأمر. أما أنا فأخذت مكاني وراء الطاولة أراجع ما كتبته بهجة الصباح في أطروحتها، وأدوّن ملاحظات نزقة على شكل عصافير وطلاسم لا معنى لها، وكأنني أحد شخصيات القاضي التنوخي في كتابه الشهير "الفرج بعد الشدة". وحسب الترتيب الذي قامت به معبودتي، دخلت برفقة سلوى وعرفتها عليّ بتبجيل وألقاب أدبية فضفاضة، أقلها وطأة "الروائي العظيم".

نهضت من وراء الطاولة وصافحتها بحرارة، وقد كانت أجمل مما توقعت، سمراء ناحلة، بشعر أسود أجعد وقصير، وفم عريض بعض الشيء، وعينين زيتونيتين وبمعنى آخر، كانت تجمع في شكلها أروع ما في لمياء وبهجة الصباح معاً.

ورغم شعوري بالإنهاك، استيقظت لديّ رغبة مفاجئة بمعاشرة سلوى، إذ بدت أنها امرأة مجربة، وأن الحياة صفعتها مراراً في تجارب كثيرة. فحين انتقلنا إلى الصالة، وفيما كانت بهجة الصباح، تعد القهوة أخرجت سلوى علبة تبغها، وقدمت لي سيجارة من نوع الحمراء القصيرة وهي تقول بلا تكلف وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل: "حكت لي بهجة الصباح عنك، لكنني كنت أتوقع أن تكون أكبر سناً". ثم أضافت بغمزة ذات معنى: "بالمناسبة لقد قرأت (امتداح خالة) خلال ليلة واحدة في المشفى". ثم ألقت نظرة باتجاه باب المطبخ

www.ibtesama.com

وهمست: "بهجة الصباح لا تتحمل حقنة من هذا النوع. يكفيها بعض المسكنات والمضادات الحيوية".

قلت منهزماً: "لقد ابتعدت كثيراً في استنتاجاتك". قالت ضاحكة: "لا أظن! على أي حال إنها روايات ممتعة. ويمكنك تزويدي ببعضها إذا لم يكن لديك مانع. فأنا خلال مناوبتي في المشفى ليست لدي هواية أشغل بالصوف ونسج الجوارب الشتوية كما تفعل الآخريات".

كان سائق التكسي الذي صعدت معه، مقبلاً على الحياة. وفي عتمة الليل روى لي بلا مقدمات مغامراته في الملاهي الليلية. وأوحى لي أنه على علاقة طيبة مع المغنيات الفجريات اللاتي يوصلهن يومياً إلى بعض الملاهي المنتشرة على طريق الربوة. واكتفيت بنظرة جانبية إليه للتأكد من أنه قواد فعلاً. فهززت رأسي وتابعت الاستماع إلى الأغنية التي كانت تبثها آلة التسجيل بما يشبه الجعير. وفي مدخل قدسيا القديمة. التفت نحوي وقال: "لم أتعرف على الأخ". أجبت: "ماريوفارغاس يوسا". قال باستغراب: " حضرتك أجنبي". قلت: "نعم". قال: "تبدو تونسياً". قلت: "من أم فرنسية وأب مهاجر".

تابع طريقه صامتاً. وعند نهاية خط المهاجرين نزلت من السيارة وأكملت الطريق مشياً بحثاً عن خيط أدخل من خلاله سلوى إلى نسيج روايتي شبه المكتمل مقرراً إلغاء فصل الموت الذي كنت وضعت التخطيطات الأولية له لاعتبارات تقنية وموضوعية. فخلال الأشهر الثلاثة الأخيرة. اجتمعت لدي مئات الروايات والمراجع عن موضوعات الحب والعشق والفراق. وهي تحتاج وحدها إلى تفرغ وقراءة متأنية. خصوصاً أنني حصلت بعد جهد على نسخة نادرة من كتاب "تحفة العروس ونزهة النفوس" للإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني. وهو مجلد على خمسة وعشرين باباً من كتب علم الباه. ورغم تبحّر العلامة في علوم الجسد إلا أنني لم أجد ما يخص القدم سوى بضعة سطور وثلاثة أبيات شعرية لابن الرومي. وما أثار دهشتي واستغرابي أن العرب أطلقت

www.ibtesama.com

مائة اسم على الفرج بينما لم تحظ القدم بأكثر من اسمين، إذ يورد التجاني في فصل "في ذكر القدم" أن "أحسن الأقدام السبطة التي لان عصبها وطالت سلامياتها وأصابعها، وضدها الكزماء، ويقال للقدم التي لا أخمص لها رحاء بالراء والحاء المهملتين".

ويتوغل العلامة الفقيه التجاني في مجاهل الجسد الأنثوي مستعيراً أدوات عالم حفريات عتيق للبحث عن لقى أثرية مغرقة في القدم تخص علم جمال الجسد وخريطة الاشتهاء عند العرب ببسالة متسلقي الجبال الوعرة إلى درجة تصورت فيها أن العرب القدماء لم يشتغلوا بعلم آخر سوى علم الباه، ولو أنهم اكتفوا بذلك لكفاهم فخراً، إذ يقتفي الإمام أثر ألف ومئة وثلاثة وأربعين نصاً في غواية الجسد وبساتين اللذة من دون أن ينسى التنويه إلى أن كتابه هذا "ليس كتاب سمر، وإنما هو كتاب علم ونظر".

وقد صرف العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم التجاني السنوات العشر الأخيرة من عمره في تأليف هذا الكتاب، وفرغ منه سنة سبعمئة وإحدى عشر هجرية، وهي سنة وفاته في المغرب، وجاءت المخطوطة في (٢٢٣) ورقة، وهي موجودة اليوم في مكتبة شستربتي البريطانية بخط محمد بن سليمان المالكي، أما أول كتاب مطبوع من هذه المخطوطة فيعود إلى سنة ألف وثلاثمائة وواحد للهجرة، وطبع في المطبعة الشرقية في مصر بمقدمة وافية وبلاغة مفخمة من نوع "فكم أودع في كنوز حقائقه من فرائد أحاديث يشتفي بسلسبيلها فؤاد العليل، ويصح بريًّا عبيرها من أمزجة الأرواح كل جريح عليل، ويصح منها في رياض المسامرة من أخلاق العادات زواهر الأزهار، وتنبثق منها ماء حياة يطيل عمر المسرة، وتكتحل منها مآثر الأكارم بما هو لعيونها قرة، ولما كاد يعفى أثر هذا الكتاب ذيل الاندراس، وتنمحي معالم معارفه في زوايا التناس، قيّض الله..".

فكرت للحظة خلال نزهتي مع الإمام أن أسأله عن علاقته بالتناص وجيولوجيا الكتابة، وحين شعر بهواجسي ترك ما بين يديه وظل ممسكاً

www.ibtesama.com

بريشته بعد أن وضع خطاً تحت آخر سطر كي لا تضيع الفكرة منه. وكان دخل في فصل "في ذكر الأرداف". وقال: "الحياة ذاتها قائمة على التناص. فالأرض تدور حول نفسها كل يوم بالآلية نفسها. والحواس تلتقط الأشياء بالأدوات نفسها. ترى وتشم وتلمس وتتذوق وتسمع. لكن ما يختلف في كل مرة هو إحساسنا تجاه الآخر. سواء أكان جسداً أم جماداً". قلت مقاطعاً: "هذا صحيح. فباختين يقول: "لا توجد كلمة عذراء لا يسكنها صوت آخر". هزّ رأسه وأشار إلى شجرة رمان كانت ترخي بأزهارها على النافذة وقال: "شجرة الرمان هذه عندما حملها الأمويون إلى الأندلس صار لها طعم آخر ونكهة أخرى. لماذا؟ لأنها غرست في تراب آخر وتعرضت لهواء مختلف ولمستها أصابع أخرى". قلت: "إنها جسد أيضاً". قال: "الجسد مغناطيس الروح. لا يكف عن الجذب. وهو في كل مرة يجدد خلاياه تبعاً لقوة مغناطيس الآخر. فالقبلة مبذولة. لكن رحيق الشفتين متجدد". ثم أنشد:

"كالأقحوان غداة غب سمائه   عذب أعاليه وأسفله ندى"

خرجتُ من منزل الإمام بعد الغروب بقليل. وتركته يتابع نسخ مخطوطه دون أن أجرؤ على طرح سؤال كان يلح عليّ طيلة مجالستي هذا الفقيه الورع: "أين موقع تجربته الشخصية من كل هذا الوصف لجمال الجسد؟ أم أنه مجرد نسَّاخ يشتغل على التناص دون أن يهتم بنظريات رولان بارت وأمبرتو إيكو وجوليا كريستيفا في هذا المجال بوصفها اكتشافات نقدية حديثة. فقد كان شعراء الجاهلية يشتغلون بأقدم نظرية في التناص. وهي (المعارضة الشعرية). فمعلقة امرؤ القيس مثلاً: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" هي مجرد نص غائب. لكنها أشهر قصيدة لامية من البحر الطويل في تاريخ الشعر العربي. فثمة قصائد لا تحصى في البكاء على الأطلال ظلت دون ألق ابتكارات الملك الضليل التي هي بمعنى ما الأصول الغائبة لنص مجهول. وما فعله الفقيه التجاني أو ابن عبد ربه الأندلسي في (العقد الفريد) مجرد تناص في جيولوجيا كتابية.

www.ibtesama.com

أو حسب رولان بارت "طبقة تقوم فوقها طبقة أخرى" ولعل ما كان يلح عليّ ذلك المساء وأنا أقترب من مبنى التنضيد الطباعي حيث أودعت مسودة الفصول الأولى من روايتي هو طيف سلوى باعتبارها آخر طبقة أركيولوجية في حفرياتي. يحدوني الأمل بأن عروق الذهب لا يمكن اكتشافها من مجرد ضربة معول واحدة، وأن اكتشاف أمريكا احتاج إلى عشرات السفن التي غرقت في ظلمات البحار قبل أن يهتدي إليها كريستوف كولومبس.

نزلت الدرجات الثلاث التي تؤدي إلى المكتب، ثم قرعت الجرس، ووقفت أنتظر، وعندما فتح الباب، كانت الفتاة التي استلمت مسودة روايتي تقف قبالتي. قالت وهي تبتسم: "آسفة تأخرت قليلاً. كنت أضع القهوة على الغاز". قلت وأنا أمشي وراءها في الدهليز: "لا بأس".

ولاحظت أن المكتب خال تماماً. دعتني إلى الجلوس في الصالة ثم قالت: "ما رأيك بفنجان قهوة؟". قلت: "لا مانع".

جلست أتأمل الصور المعلقة على الجدران، والمخطوطات في الخزانة التي احتلت جداراً كاملاً. فجأة تعالى صوت الموسيقا من غرفة التنضيد، وترافق مع دخول الفتاة وهي تحمل صينية القهوة.

تناولت فنجاني وأخرجت علبة تبغي من جيب سترتي. قلت: "سيجارة؟". أخذت واحدة، أشعلتها لها، وبحركة أجيدها تماماً اصطدمت يدي بأصابع يدها. قالت: "أنجزت المخطوطة منذ يومين. "قلت: "انشغلت قليلاً". وسألتها عن صاحب المكتب. قالت: "إنه مسافر". قلت: "هل أتعبك خطي في الطباعة؟". قالت: "لا أبداً. خطك واضح وجميل". ثم أضافت: "هل هذه أول رواية تكتبها؟". قلت: "نعم. هل أعجبتك؟". قالت بتردد: "لقد أثارت فضولي، خصوصاً شخصية لمياء". قلت وأنا أضع طُسماً دسماً في سنارتي: "لقد أتعبتني لمياء فعلاً، إذا لم أقل أضاعتني في متاهتها". قالت: "هل هي شخصية حقيقية". قلت وأنا أضع ساقاً على ساق: "إنها مجرد شخصية متخيّلة. ولكن كما تعلمين ليس هناك خيال

www.ibtesama.com

محض ولا حقيقة أكيدة لدى الروائيين". قالت: "هل أنت بطل الرواية؟". ابتسمت كثعلب انتهى للتو من التهام دجاجة كاملة وقلت: "بكل تواضع نعم". قالت وهي تتأملني من رأسي إلى قدمي: "ولكن ألا تخشى الفضيحة؟". قلت باستنكار: "الفضيحة؟". قالت: "أقصد, ماذا لو أن لمياء قرأت الرواية؟". قلت: "لم أفكر على هذا النحو وأنا أكتب. كنت أسيراً للشخصية أكثر مما كانت الشخصية أسيرة لي". ثم أضفت بعد صمت بليغ: "عندما كتب تولستوي آنا كارنينا لم يقصد أن يظهرها عاهرة أو خائنة, كانت تتبع قلبها, وللأسف لأسباب أخلاقية تخص أخلاقيات القرن التاسع عشر في روسيا أنهى حياتها بالانتحار على سكة قطار". قالت: "لقد قرأت هذه الرواية وأعجبتني كثيراً". قلت: "أود أن أسألك: أنت مثلاً, ألا تكتبين أشياء خاصة. مذكرات مثلاً؟". قالت: "أحياناً, ولكنها ليست مذكرات, إنها مجرد مشاعر". قلت: "تقصدين مجرد خيال أليس كذلك؟". قالت: "ربما". قلت: "الكتابة بما فيها الرواية حياة متخيلة, وفي الوقت ذاته هي وقائع غير مكتملة, وما على الروائي إلا أن يكسو هذه الوقائع أحداثاً إضافية وهكذا". قالت: "هل جلبت معك فصولاً أخرى من روايتك؟". قلت: "لا. إنها تحتاج إلى كتابة ثانية. وحتى ما هو موجود لديك مجرد مسودة تحتاج هي الأخرى إلى إعادة كتابة. وعلى هذا الأساس, ربما سأكشف أسراراً أكبر عن شخصية لمياء, أو شخصية بهجة الصباح". قالت وهي تنهض: "سأجلب لك المخطوطة". قلت: "أحتاج إلى نسخة إضافية منها
على ديسك إذا لم يكن لديك مانع؟". قالت: "لا أبداً, دقائق فقط".

أكون مخادعاً لو قلت إنني لم أفكر في إغوائها واللحاق بها إلى صالة التنضيد بذريعة الاطمئنان على حسن سير العمل, سيما أن كل الظروف مواتية للانقضاض عليها, لكنني أزحت الفكرة جانباً, خشية من رد فعلها الغاضب مردداً: "أجملَ الغزلان تلك التي لم نصطدها بعد". وكانت سلوى تهيمن على

www.ibtesama.com

تفكيري تماماً وتكاد تغلق الدرب على بهجة الصباح. أما لمياء فقد توارت تماماً عن شاشة ذاكرتي. حتى إنني نسيت ملامحها ورائحتها.

استلمت المغلف الذي يحتوي المخطوط والديسك. وشكرت هدى على القهوة. ضغطت على يدها مصافحاً. ثم انصرفت.

على شاشة جهاز الكمبيوتر. استعرضت المخطوط بتأن وكراهية. إذ لم تعد لدي أدنى رغبة بمراجعة ما كتبته خلال الأشهر القليلة الماضية. وأحسست أن لذة الكتابة تتجلى في لحظة الكتابة نفسها. لحظة جنون المخيلة وانعتاقها من كل ما يحيط بها من أسوار عالية ومحرمات. واكتشفت أنني لم أكتب رواية. بل مجموعة روايات أو على نحو أكثر دقة أفكار روايات. فحين توقفت عند حكاية التاجر البغدادي وياسمين زاد ذهلت من أجوائها. أنها تمتد على زمن طويل يصل إلى حدود عشرين عاماً. وكان من الممكن ببساطة أن أقتفي أثر هذا العاشق ومكابداته من بغداد إلى دمشق إلى بلاد فارس وسمرقند وبخارى والأندلس انتهاءً بدمشق عند ذلك الزقاق الضيق الذي يقع فيه بيت ياسمين زاد. فقد كان بطل روايتي يطارد وهماً أو سراباً مثلي تماماً. ولن يصل إلى يقين على الإطلاق. ولهذا السبب. ربما. كنت أبحث عن حكاية مستحيلة. حكاية لا تنتهي أبداً. حكاية لا تبوح بسرها. مثل مسافر تائه في الصحراء لا بوصلة تهديه إلى بئر ماء. وكلما اقترب من ضالته اكتشف أنها مجرد سراب وأن الحقيقة الوحيدة الملموسة لديه هي أنه يكاد يموت من العطش. وليس من سبيل لارتوائه في هذه المفازة المهلكة سوى "غلاوة الروح".

وأشد ما كان يثير ألمي أن أنتهي من كتابة روايتي تماماً وأغادر شخصياتي وأصدقائي من الورّاقين والنسّاخين والنقّاشين. إذ كلما أدركت أنني سوف أفرغ منها أحس أن أضلاعي تضطرب ورئتيَّ تضيقان وأن الحياة برمتها لا معنى لها.

www.ibtesama.com

أغلقت جهاز الكمبيوتر وقد أصابني الهلع على مصير تلك الأرواح الهاجعة على تخوم الصفحات من مختلف العصور والأزمنة وهي تفتش عن يقين يحميها من الهلاك.

نهضت من خلف الجهاز ورفعت سماعة الهاتف ناوياً الاتصال بسلوى في المشفى، لكنني لا شعورياً أدرت رقم لمياء، ربما تحت وطأة شوق مفاجئ. فعلى الرغم من كل الهزائم المتبادلة بيننا لم أستطع نسيان رائحتها وتلك الأماسي الصاخبة والنقاشات الساخنة التي تنتهي بضحكة مجلجلة منها واعتراف غامض مني بأنني ربما سأقع في حبها بجنون متجاهلاً التناقض الحاد بيننا. جاءني صوتها واهناً: "ألو". قلت: "اشتقت لك". أجابت: "معقول؟!". قلت: "أنا شخصياً استغربت هذه الحالة المفاجئة". قالت: "ابحث عن واحدة أخرى ودرّبها على تمارين الليونة، أنا لم أعد أصلح لهذا الدور". قلت: "ولكنني مشتاق لك فعلاً". قالت: "أكلمك من موقع التصوير في صيدنايا". قلت: "ومتى تعودين". قالت: "ليس قبل الثالثة صباحاً. "قلت: "أرجو أن يتقبل الربّ صلواتك وابتهالاتك".

رغبت مرة أخرى أن أدير رقم سلوى، لكن لغزاً غامضاً منعني من الاتصال بها، وأحسست أن سلوى بمجرد التعرف عليها عن قرب ستدمر حياتي لا محال، وبالتالي ستدمر روايتي، إذ من المستحيل أن أتجاهل حضورها ونكهة قرفتها اللاذعة على الرغم من أنني لم ألمسها بعد، لكن الإشارات الأولى تؤكد كلها أن الطريق إليها سالكة ولا توجد أية مطبات أو منعطفات تعرقل مسار نزهتي في حديقة متاهتها الجحيمية.

كنت طوال الوقت أتجاهل حضور بهجة الصباح وأبعدها قاصداً عن شاشة مخيلتي معتبراً أن ما حصل بيننا مجرد خطأ مطبعي ينبغي تصحيحه في الحال، وأن من يعش أوهام "الأجنحة المتكسرة" لن يلتقي حتماً مع من يحلّق في فضاءات نصوص الجسد معترفاً بنذالتي معها، فقد كانت علاقتي بها مجرد إغواء أرنب خائف في الاقتراب من جزرة المعصية، وقد سميتها سهواً جزرة العشق

www.ibtesama.com

العاصف، وعليها وحدها أن تجد حلاً لمشكلتها إذا افترضنا أن ما حصل بيننا مشكلة، وأكدت لها في أول لقاء بيننا بعد تلك الليلة العاصفة أن تدع القدر يسيّر مراكبنا إلى الشواطئ المجهولة، ومن المبكر التفكير في نهاية جافة لأروع قصة حب مجنونة.

ونصحتها بالجنون بعض الشيء لأنه الدواء الشافي لكل العلل المستعصية، كما أطنبت في الثناء على تطوير أسلوبها في مقاربة موضوع رسالتها للماجستير مؤكداً أن تفتح زهور جسدها لعب دوراً مؤثراً في اكتشاف نقاط جوهرية كانت غائبة عن بحثها في سردية الرواية المعاصرة.

طبعاً لم تعجبها نصائحي إذ لم أقل صدمت حقاً بابن حزم الذي يجلس أمامها وقد اكتست ملامحه حكمة ابن سينا وعقلانية ابن رشد في آن معاً.

وكي أخفف من وطأة إحباطها قلت: "حقاً كانت ليلة مجنونة" ثم أضفت بلا مبالاة واضحة: "ما أخبار صديقتك سلوى". أجابت بهدوء: "نصحتني بالابتعاد عنك". قلت: "وماذا كانت مبرراتها لمثل هذه النصيحة الخرقاء". قالت: "لا شيء، مجرد إحساس أننا لن نستمر معاً". قلت: "هل رويتِ لها شيئاً عمّا بيننا". قالت: "اكتشفت الأمر بنفسها واضطررت للاعتراف لها بما حصل تلك الليلة". قلت: "وهل أنت نادمة؟". قالت: "لا لأنني لم أتصور أنك سوف تتخلى عني بهذه السهولة واللامبالاة". قلت: "أنا لم أقل إنني سأتخلى عنك، لكنني لا أحب القيود وأرفض حباً مشروطاً بوعود ربما لن أفي بها". أجابت: "لا داع المراوغة، أحب فيك صراحتك وحنانك، كنت لطيفاً معي بكل الأحوال". قلت بنذالة فاضحة ومكشوفة: "وسأبقى لطيفاً لأنني لا أستطيع نسيانك، فأنت جرح لم ولن يندمل في حياتي". قالت: "أفكر في السفر إلى الضيعة غداً أو بعد غد". قلت: "وهل ستطول غيبتك". قالت: "لا أعلم ربما أسبوعاً أو أكثر". قلت: "في هذه الحالة ينبغي أن أودعك على نحو آخر". قالت بعتب: "شكراً. أفضالك عليّ لا تنسى".

www.ibtesama.com

تناولت حقيبتها عن مسند الكرسي ونهضت. قلت: "انتظري سوف أوصلك إلى موقف الحافلات". قالت: "شكراً سأستقل تكسي".

ودعتها عند الرصيف المحاذي للمقهى. ولم أستطع تجاهل نظرتها الحزينة وهي ترمقني من وراء بلور السيارة. وعندما غادرت السيارة مبتعدة رفعت يدي ملوحاً وأحسست برذاذ يشبه البصقة يبلل وجهي.

وقفت لحظات في مكاني حائراً. أين أتجه؟ مشيت بخطوات مرتبكة صاعداً شارع المتنبي. توقفت أمام مكتبة اليقظة. كانت الواجهة مليئة بكتب المذكرات السياسية والانقلابات العسكرية وكتب العشائر وبعض الكتب الجديدة عن حرب أفغانستان تزّين أغلفتها صور "ابن لادن" بزيه المعروف ولحيته السوداء الطويلة. تذكرت على الفور تقريراً صحفياً ـ كنت قصصته من إحدى الصحف ـ يرصد تفاصيل أكبر مجزرة تتعرض لها مكتبة في القرن العشرين، إذ أقدمت حركة "طالبان" في الثاني عشر من آب، عام ١٩٩٨ على إحراق محتويات المكتبة الوطنية في كابول مستخدمة سلاح الآر. بي . جي في نسف أجنحة المكتبة لتنفيذ فعل الإعدام حرقاً بخمسة وخمسين ألف مجلد، بعضها نادر، وكان سبق قرار الإعدام تدمير وتهشيم آثار العصور القديمة في متحف كابول، وبعده التفجير الشهير بالديناميت للتماثيل البوذية الفريدة في حجومها ودقة إتقانها.

قلت لنفسي: "العالم بأكمله يريد تدمير الذاكرة، وأنا أريد استعادتها وترميمها".

كانت معضلتي الأكثر سطوة في الليالي التالية هي كيف أرسم الخريطة النهائية لمصائر شخصياتي: لمياء وبهجة الصباح وسلوى؟ مدفوعاً برغبة لا تقاوم في إنعاش شخصية سلوى تحديداً، فهي الوحيدة التي لم أشتغل عليها كما يجب لأنها دخلت عالمي فجأة وبلا أي تخطيط مسبق من قبلي، وفكرت في طريقة للتخلص منها، لكنني سرعان ما تراجعت تحت وطأة إحساس غامض في أن

www.ibtesama.com

كلمة السر موجودة لديها دون غيرها. وأنها هي شجرة التفاح الوحيدة في الحديقة التي لم أتذوق ثمارها. ففي الحكايات هناك دائماً غرفة مقفلة ينصح الراوي بعدم الدخول إليها لأنها تؤدي إلى الجحيم والخروج إلى الأبد من جنة القصر. وبشجاعة السكارى رفعت سماعة الهاتف واتصلت بها متأكداً من غياب بهجة الصباح التي سافرت منذ يومين على الأقل. جاءني صوتها ناعماً ومثيراً: "ألو". قلت: "أريد أن أراك". قالت بنبرة أكثر إثارة أدت إلى رفع حرارتي فوراً: "تأخرت". قلت: "لم أنسك منذ رأيتك تلك الليلة". أجابت: "انتبه أنت تتحدث مع سلوى وليس مع بهجة الصباح". قلت: "حرارتي مرتفعة وأحتاج إلى حقنة عاجلة من أجمل ممرضة في العالم. ولم أجد في دليل الهاتف سوى اسمك".

بعد ثلاث زجاجات من البيرة الألمانية اعترفت سلوى بكل خيباتها وأحزانها. وقالت: "إنها لم تفاجأ باتصالي لأنه متوقع. وأضافت: "لدي حاسة شم قوية. وعرفت أنك ستتخبط في أقرب فرصة طالباً النجدة. وقد قررت منذ رأيتك أول مرة أن أغيثك مما أنت فيه".

كانت الموسيقا صاخبة في البار الذي اختارته سلوى. قلت وقد شعرت بهزيمتي أمامها: "لا أحب الصخب. ما رأيك أن نذهب من هنا". قالت: "كما ترغب".

مشينا في أزقة ضيقة وشبه معتمة. وقد تأبطت ذراعها. إذا كانت مشيتها مضطربة قليلاً. أوقفت تكسي وصعدنا في المقعد الخلفي بصمت. أمسكت يدها وعبثت براحة كفيها. قلت للسائق: إلى الجسر الأبيض. نظرت إليّ باستسلام. مما أثار اضطرابي أكثر. وأحسست أنني في حلم وردي.

فور وصولنا إلى منزلي. قالت:"هل لديك مشروب". قلت: "يوجد نبيذ".

هزت رأسها موافقة. وبعد أن أخذت جرعة كبيرة من كأسها أشعلت سيجارة حمراء وقالت: "لست امرأة ساقطة كما تتصور. لكنني مع الزمن تعلمت كيف أمنح جسدي ما يشتهي". ثم أردفت: "خلال عملي بالمشفى تعرضت

www.ibtesama.com

لمضايقات لا تحصى من الأطباء والمرضى. قاومت بشدة. لكنني كنت في الليل حين أندس في سريري أستحضر جسد من أغواني وأمارس معه بلذة. وحين تحولت اللذة إلى عادة أقلعت عن الأمر. ووافقت على الزواج عرفياً من طبيب كان يناوب معي. وحين اكتشفت نذالته وشذوذه مزقت وثيقة الزواج العرفي وبصقت في وجهه. ومن يومها صرت أتبع هوى جسدي".

أفرغت ما بكأسها وألقت رأسها على ركبتيها.

اقتربت منها وجلست إلى جانبها. رفعت وجهها نحوي وعانقتها بتأثر مفاجئ وأحسست أنني بحاجة إلى البكاء. واستسلمت تماماً على كتفها كمسيح صغير. بعد نحو عشر دقائق من الصمت المطبق. ربتت على كتفي بحنان فرفعت رأسي بأسى قبطان فقد طوق النجاة. وأفسحت لها طريقاً كي تنهض. قالت بابتسامة منتصرة: "سنلتقي حتماً". هززت رأسي بتسليم. وتبعتها إلى الباب. منحتني قبلة خاطفة وخرجت.

عدتُ إلى مقعدي مذهولاً مما أصابني غير مصدق ما جرى. واعتقدت لوهلة أنني أحلم لولا أنني لمحت على الكنبة المقابلة ـ حيث كانت تجلس سلوى ـ قطعة معدنية صغيرة من الفضة. وحين أمسكتها وتأملتها جيداً اكتشفت أنها فردة قرط. يبدو أنها انزلقت من أذنها. كانت على شكل مثلث بتخاريم صغيرة. يتوسطها حرف سين باللاتينية. تشبه المراوح الصينية اليدوية. واعتبرتها فألاً حسناً.

نهضت من مكاني وجلست أمام شاشة الكمبيوتر بحماس: "أكتب مدفوعاً بلذة القصّ. وهي الحالة الإنسانية التي أكثر ما تكون شبهاً بالتحليق". كما قال ماركيز ذات مرة دون أن أفكر أين كانت الحياة تنتهي وأين كان الخيال يبدأ.

www.ibtesama.com

ومثل إلهام سماوي جاءني عنوان روايتي الذي طالما أرقني خلال أيام الكتابة. فكتبت في الصفحة الأولى التي ظلت بيضاء، بدون أدنى وجل أو تردد: "ورَّاق الحب".

www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

SCRIBER OF LOVE_NOVEL

KHALIL SWEILEH

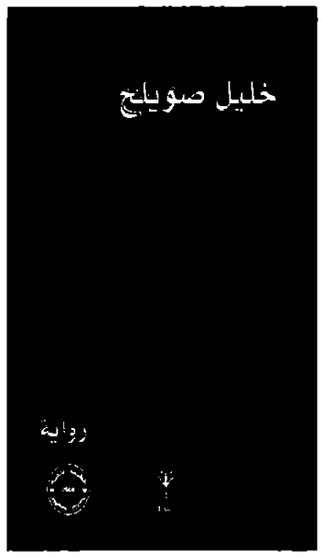

شهادات في الرواية

كأنها زجاج معشّق يلفتنا إلى نفسه قبل أن يلفتنا إلى ما يقع خلفه...روايــة حب عصرية، تتجسد فيها وبها متعة الكتابة التي هي نوع من الحب الذي تتولد عنه متعة الكاتب وإمتاع القارئ.

د. جابر عصفور" الحياة"

صريح ومخاتل، بسيط ومعقّد، واضح وغامض، مستقيم وملتو، ومتمرّس يبغي تضليلك بين متاهات لا حصر لها. رواية ترتفع بالمادة الخام الصلبة إلى فضاءات الخيال السحرية بضربة مباغتة.

فؤاد التكرلي" الحياة"

شكل جديد في السرد، وفي تقنية بناء الحكاية. يتحرك أبطال الرواية فوق خشبة مسرح بلا بداية ولانهاية، مفتوحة على رحابة التجربة الإنسانية.

" وكالة أنباء الشرق الأوسط"

هذه الرواية تصالح من دون عناء بين الماضي شبه المقدّس وبين حياتنا الآن.

رشيدة التركي" نزوى"

نينوى

www.ibtesama.com